فلسفة التنوير بين المشروع الإسلامي والمشروع التغريبي

د. محمد السيد الجليند

استاذ الفلسفة الإسلامية . دار العلوم

المصطلح وظروف نشأته:

من المفيد أن نوضح لأنفسنا ولغيرنا مفهوم مصطلح التنوير، كيف ظهر تاريخيًا، وما هي الظروف الثقافية التي أفرزته، وكيف انتقل إلى العالم العربي وهو محمل بغبار معركة وقعت على غير أرضنا، وتحت ظروف ثقافية نشأت وعاشت في غير حضارتنا، وفي ظل دين غير ديننا؟

إن توضيح هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية حتى يتعرف الشباب على حقيقة هذا المصطلح وظروف نشأته التاريخية. وليكون على بينة من الأمر، فإن كثيراً من المصطلحات التي تتردد على الألسنة وتسود بها الصحف والمجلات مصطلحات مدخولة، ومضللة يشوبها زيف وتمويه أكثر مما فيها من الحق المقصود أو البيان للحق. ولأن الساحة الثقافية أشبه بالميدان الخالي إلا من أصحاب هذه النزعات المدخولة، وهذه المصطلحات المضللة، فكثر استعمال هذه المصطلحات في الكتابات والندوات الثقافية دون استيضاح من أحد لمعناها ومدلولها، ودون أن يتساءل عن ظروف نشأتها وملابساتها الثقافية والدينية. مما يخشى معه أن يستقر في أذهان الشباب، هذه المصطلحات المدخولة أو أن ما يطرح عليهم من قضايا فكرية وثقافية تحت مسميات التنوير أو التقدمية أو ... أو ... هي الحق الذي لا مرتبة فيه أو أن مستقبل الوطن مرهون بالأخذ بها، كما يدندن حول ذلك بعض أصحاب الأقلام... لا... إن القضية تحتاج إلى توضيح وطرح تساؤلات عديدة، بل تحتاج إلى مراجعة للنفس من أصحاب هذه النزعات، خاصة أن وقتًا كافيًا قد مضى على ظهور هذه النزعة، وقد تبين خلاله الخيط الأبيض من الخيط الأسود لكل ذي بصر وبصيرة، وأصبح واضحًا ماذا يريد الغرب منا، وماذا يريد حماة شعار التنوير بالمفهوم التغريبي.

إن مصطلح التنوير ـ كغيره من المصطلحات العلمانية ـ وفد إلينا من

الغرب ضمن مجموع المصطلحات التى غزت ثقافتنا المعاصرة خلال حركة الاتصال الحديثة بين مصر والعالم الغربى ـ خاصة فرنسا ـ خلال القرنين الأخيرين.

ولقد نشأ هذا المصطلح فى ظروف تاريخية عاشتها دول أوروبا شرقًا وغربًا، كانت ثقافة الشعوب فى أوروبا خلالها قاصرة على ما تمليه عليهم سدنة الكنيسة ورجالها، وكانت السيطرة الثقافية واللاهوتية وتفسير الظواهر الطبيعية خاضعة لرجال اللاهوت الكنسى، لا يجوز مخالفتها، باعتبار ذلك وحيًا لا تجوز مخالفته.

وحتى لا يساء فهمنا نود أن نشير هنا إلى أنه لا ضير من استعمال المصطلحات الوافدة من هنا أو هناك، ولكن ذلك يستلزم توضيح معناها للشباب، ماذا يراد بها عند أهلها، وفى البيئة التى تولد فيها هذا المصطلح أو ذاك، ما مفهوم المصطلح عندهم، وماذا نريد به عندنا، وهل الظروف والملابسات التى أفرزت هذا المصطلح موجودة فى بيئتنا أم لا؟ وهذا أمر لابد منه عند استعمال المصطلحات الوافدة؛ لأن معظمها فيه لبس وتمويه لابد من بيانه للشباب حتى إذا قبلوا المصطلح أو رفضوه يكون موقفهم مؤسسًا على اليقين فى القبول أو الرفض. وكثيرًا ما تثور المشكلات بين المدارس الفكرية، بسبب عدم توضيح المفاهيم ولا بيان لمدلول المصطلحات، فقد يكون المصطلح مشتملاً على حق وباطل، بسبب ظروف نشأته فيكون قبوله على الإطلاق قبول لما فيه من الباطل، ويكون رفضه على الإطلاق رفضًا لما فيه من الحق، وفى كلتا الحالتين افتراء على المنهج العلمى السليم.

ومن المعروف تاريخيًا أن موقف الكنيسة وآراء رجالها كانت فى العصور الوسطى تمثل الجهل والتخلف والخرافة، فلقد طلبوا من المسيحيين الإيمان

والإذعان لآرائهم فى تفسير الظواهر الكونية مدعين أن الدين (الكنيسة) يختص بتفسير هذه الظواهر، وإن الخروج عليها كفر وإلحاد، ويكون جزاؤه الطرد من رحمة الكنيسة.

ومن المفيد أن ننبه هنا إلى أن موقف الأديان من الكون وظواهره هو الإيمان بما هو موجود على ما هو عليه فى الوجود، دون أن يفرض الدين تفسيراً معيناً لهذه الظاهرة أو تلك، تاركًا ذلك كله لمنطق العلم وما يصل إليه العقل من اكتشافات وعلاقات بين الأسباب والظواهر، دافعًا للعقل أن يعمل ويكتشف القوانين ويدرك العلاقات، جاعلاً الكون كله خاضعًا لسلطان العقل بحثًا واكتشافًا وتسخيراً وتوظيفًا. ومن هنا كان الكون كله آية دالة على خالقه، وكان أكثر العلماء اكتشافًا لقوانين الكون وأكثرهم إدراكًا للعلاقات أشدهم خشية لخالق هذا الكون. هذه نقطة تحتاج إلى بسط وتفصيل أحسب أن له مجالاً آخر، ولكن أردنا أن ننبه هنا إلى السقوط الذى وقعت فيه الكنيسة بفرض آرائها على العلماء ودعوى احتكارها تفسير الظواهر الكونية، ووجوب الخضوع لتفسيراتها وقبول آرائها فى تفسيرهم للظواهر الطبيعية، وترتب على ذلك ميلاد حركة التنوير العلمى الرافضة للكنيسة ولآرائها، معلنة أن ما يدعيه رجال الكنيسة باطل لا حق فيه، جهل لا يسنده علم، خرافة لا يقبلها العقل.

ولما كان رجال الكنيسة هم الممثلون للدين. فقد فتش العلماء فيما يطالبهم رجال الكنيسة الإيمان به والاعتقاد بصحته، فوجدوا أن هذه الآراء، وتلك التفسيرات، خرافة لا يقرها العقل، وجهل لا يقبلها العلم، وظلام وتخلف لا يثبت أمام النقد ومنطق العلم، فأعلنوا ثورتهم على هذه الآراء وتلك الخرافات التى ارتبطت فى أذهانهم بالكنيسة ورجالها.

وبدأت قصة هذا الصراع المرير بين الكنيسة والعلماء منذ أيام كوبرنيق

(١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م)، الذى أعلن عن آرائه فى الطبيعيات والفلك ومركز الكون، وكلها على نقيض ما يدعيه رجال الكنيسة، وانسحب ذلك الموقف بكامله على الدين بمفهومه العام.

لم يتنبه العلماء إلى ضرورة التفرقة بين رأى رجال الكنيسة والدين الصحيح فى مفهومه العام. وصار الدين عندهم ـ كما عرفوه من رجال الكنيسة ـ تجسيداً للتخلف والجهل والخرافة. وأصبح رجل الدين رمزاً لكل هذه المعانى. فهو داعية للجهل. محارب للعقل. رافض للعلم، ولا شك عندى ـ أن هذه الكوكبة من العلماء التى عاشت هذه المعركة ان ينقصها العلم بالدين الصحيح، الذى نزل على عيسى عليه السلام، فضلاً عن جهلهم التام بالإسلام واحتضانه للعلم، وتكريمه للعلماء، ولا شك عندى أيضاً أن رجال الكنيسة الذين أعلنوا هذه الحرب التاريخية على العلم والعلماء قد أساءوا إلى المسيحية، وأفسدوا بموقفهم هذا حركة التاريخ المعاصر. فلا انتصروا لدينهم، ولا حققوا النصر على عدوهم، بل كانوا بموقفهم هذا الباب الطبيعى الذى فتح على مصراعيه لدعاة الإلحاد والثورة على الكنيسة والدين معاً، حيث صوروا الموقف على أنه صراع بين الدين والعلم، وليس بين رجال الكنيسة والعلماء، بين العقل والخرافة، بين النور والظلام، بين التقدم والتخلف، وكان مفهوم التنوير يعنى التحصن بمنطق العلم والعقلانية، ضد هذا الدين ورجاله، الذين يمثلون الجهل والخرافة، فكان لابد أن ينتصر العلم فى مواجهة الجهل، وينتصر العقل فى مواجهة الخرافة، والتقدم فى مواجهة التخلف.

وكان مصطلح التنوير هو المعبر عن نتيجة هذه المعركة التى حسمها التاريخ والواقع لصالح العلم والعقل والنور ضد الكنيسة وآرائها، ولقد صورت المعركة كلها على أنها صراع بين الدين، بمعناها العام، وكل معانى التنوير التى هى العقلانية والتقدم، وانتقلت المعركة بكل ملابساتها

وظروفها إلى عالمنا العربى بدون أن يفطن دعاة التنوير فى عالمنا العربى إلى أن الإسلام ليس هو الكنيسة، ولا عالمنا العربى هو أوروبا، ولا الحضارة الإسلامية هى الحضارة الأوروبية فى عصورها المظلمة. فليس رجل الدين عندنا رافضًا للعلم، ولا محاربًا للعقل.

وأخذ دعاة التنوير عندنا يصورون المعركة فى بلادنا على أنها صراع بين الإسلام والعلم، بين الدين والعقل، بين ضرورة التخلص من الماضى، والنهوض بالمستقبل، وكان النموذج الغربى فى نظرهم هو المثل والقدوة التى ينبغى أن نحذو حذوها. ونسير فى ركابها حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلناه معهم.

وأصبحت الثنائية التناقضية بين الدين والعلم عنوانًا لحركة التنوير، وملازمة لها فى بلادنا، فكما رفض العلماء فى أوروبا الكنيسة، وأعلنوا الحرب عليها، دليلاً على التنوير أخذ دعاة التنوير عندنا بنفس المبدأ، فأعلنوا الحرب على الإسلام ورجاله، لكى يعلنوا عن أنفسهم أنهم تنويريون ودعاة التنوير، وكما أعلن العلماء فى الغرب أن الدين ـ الكنيسة ـ خرافة، ورجاله رموز للجهل، أخذ دعاة التنوير فى بلادنا يلصقون نفس التهم بالإسلام ورجاله، ولو اتصف هؤلاء الدعاة إلى التنوير لبدأوا دعوتهم من حيث بدأ الإسلام، الذى يجعل العلم دينًا وفريضة، ويجعل حاكم العقل فى عالم الشهادة ميزانًا لا يخطئ، ولو اتصفوا لفرقوا بين الإسلام والكنيسة، وبين الشرق والغرب.

الدين والحضارة:

لقد أصبح من المقرر عقلاً، الذى لا يحتاج إلى دليل أن تاريخ الحضارة الإنسانية هو تاريخ للتدين البشرى ومعتقداته، حيث يعكس كل شعب تدينه ومعتقداته فى آثاره وتراثه الحضارى. شعرًا كان أو نثرًا، أسطورة

كانت أو صورة مجسمة فى شكل تمثال أو نحت أو حكمة شعبية، هذه قضية لا تخلوا منها أمة من الأمم، ولا ينفرد بها تاريخ شعب دون شعب آخر، ومن هنا فإنه يمكن لنا أن نقول: إن تاريخ الحضارات الإنسانية هو تاريخ تدينها أيًا كان هذا التدين ونوع هذا الاعتقاد، رقيًا أو خطاطًا، مقبولاً فى منطق العقل أو مرذولاً، نزل به كتاب وبشر به وحى أو وضعه البشر، وأوصى به الحكماء، فلم نجد فى تاريخ البشرية من لدن آدم إلى الآن، أمة بلا دين ولا شعبًا بلا عقيدة، وما كانت الأساطير الشعبية فى كثير من البلاد إلا تجسيدًا لغذائها الروحى، الذى يسد حاجتها إلى الاعتقاد، ويعبر عن حاجتها إلى التدين.

قد توجد أمم كثيرة بلا فنون، وبلا مسارح، وبلا علوم، وبلا آثار، لكن يستحيل أن نجد على ظهر الأرض أمة بلا اعتقاد وبلا مظهر يعبر عن تدينها، فقد نجد أمة لا تملك الأهرامات، ولا أبا الهول، كما تملكه مصر، وقد نجد أمة ليس لديها سور عظيم مثل سور الصين. وقد نجد أمة بلا فلسفة ولا مسارح ولا فنون، كما هو الشأن فى اليونان، ولكنك تجد أمم أهل الأرض كلها تشترك فى حاجتها إلى الاعتقاد والتدين، ثم تختلف وسائلها فى التعبير عن هذه الاعتقادات، وعن تلك الحاجة الغريزية الفطرية، فنجد أممًا جسدت عقائدها فى التوجه إلى المحسوسات التى لمست فيها نوعًا من النفع والقدرة الخارقة، وأممًا أخرى نزل عليها الوحى بتصويب الاعتقاد وتوجيهها نحو المنهج السماوى السليم، فالأمم التى اندثرت معالم الوحى فيها تحاول أن تبحث لنفسها عن دين تعتقده، وقد تجد فى بعض النماذج البشرية المثل والقدوة ومؤهلات الاعتقاد، فتضفى عليها صفة الألوهية أو صفة الأنبياء أو الحكماء، ولعل فى نشأة الأديان الوضعية ما يكفى للدلالة على حاجة الإنسان الغريزية إلى التدين والاعتقاد. وليس بوذا ولا زرادشت ولا حكماء الصين القدمى إلا نماذج بشرية أضفى عليها أهلها صفة القداسة إشباعًا

لحاجتهم إلى الاعتقاد. هذه قضية تكاد تجزم أنه لم تخل منها أمة من الأمم.

ولهذا لا نجد أمة بلا معبد ولا محراب، أيًا كان اسم هذا المعبد كنيسة أو مسجداً أو بيعًا أو... أو... هذه حقيقة أكدها تاريخ الحضارات الإنسانية، ذلك أنه في داخل كل منا تعطش ذاتي لا يرويه إلا الاعتقاد. صحيحًا كان هذا الاعتقاد أو فاسداً، وفي طبع كل منا نهم يشبه نهم الجائع إلى الطعام. ولعل هذه الحاجة الغريزية إلى التدين هي التي جعلت الفيلسوف الفرنسي «رينان» يقول: إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ويتلاشى من أمام أعيننا، وأن نبطل حرية العقل.. لكن يستحيل أن ينمحي التدين من نفوسنا، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أصحابه أن يحصروا حاجة الإنسان في المطالب المادية الدنيئة للحياة الأرضية، ولقد جاء في معجم لاروس للقرن العشرين: إن الغريزة الدينية حاجة مشتركة بين جميع الأجناس البشرية حتى أكثرها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية.

ونحن نؤكد من جانبنا أنه من أجل إشباع هذه الحاجة الفطرية وتصحيح مسارها التاريخي كان تتابع الأنبياء والمرسلين إلى أمم أهل الأرض قال تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾، وقال سبحانه: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾.

إن تقرير هذه الحقيقة وتأكيدها يوضح أمراً مهمًا في الطبيعة الإنسانية قرره الواقع، وأكده التاريخ هو أن التدين أصيل في النفس الإنسانية، والإلحاد أمر عارض عليه، الاعتقاد هو الأصل، والإلحاد شذوذ، الإيمان هو منطق الفطرة، وهو صمام الأمان للنفس البشرية، والإلحاد طارئ لمرض عارض. وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف: «خلقت عبادي حنفاء

فاجتالتهم الشياطين»، والحديث الصحيح: «كل مولود يولد على الفطرة. فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدع»، أى نقص والرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يأتوا بدعوتهم إلى البشرية ليؤسسوا أصل الاعتقاد فى النفس البشرية.. لا. ولم يكن هذا غرضهم، ولا هدفًا لهم. وإنما جاءوا ليصححوا الاعتقاد المنحرف، ويصوبوا مساره المعوج وتعليم شعائره، والإعلان عن طقوسه وشعبه. ولذلك فإن القرآن الكريم سمى وظيفة الأنبياء تذكيراً وتذكرة، وسماهم مذكرين. قال تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾، وقال تعالى: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾، وسمى القرآن نفسه تذكرة. فقال سبحانه عن القرآن: ﴿إن هذه تذكرة﴾، نعم إن الرسل لم يؤسسوا الاعتقاد فى نفوس البشر. وإنما صححوه، كشفوا عنه الصدأ، وأزالوا عنه ظلمات الشك ورين الشبهات، وحديث القرآن عن هذه القضية جاء كله فى صيغة التذكير والتذكر لينبهنا إلى أن هذه قضية مركوزة فى نفوس بنى آدم. قد يعلوها الصدأ أحيانًا، قد يخبوا نورها أحيانًا، لكنها لا تموت ولا تتلاشى أبداً.

التدين ليس مرحلة تاريخية:

بعد تأكيدنا على أهمية الحقيقتين السابقتين نرى ضرورة مراجعة تفسير علماء الاجتماع لظاهرة التدين، أو كما يطلقون عليها - خطأ - ظاهرة الدين، ويعتبرون الدين مرحلة تاريخية انتهت بدخول العالم عصر العلم.

إن مؤسسى علم الاجتماع الحديث يقسمون تاريخ الإنسان إلى مراحل ثلاثة أولها مرحلة الدين - ثم مرحلة العقل والتفلسف - ثم مرحلة العلم. وكل مرحلة تمثل فى نظرة علماء الاجتماع مقدمة للمرحلة التى تليها.

ولابد أن تختفى هذه المرحلة السابقة بظهور المرحلة التالية لها، وهذه المراحل الثلاث تسير فى تاريخ الإنسان فى خط تطورى، ومرحلة الدين أو التفسير الدينى هو أول هذه المراحل، إنه يمثل مرحلة الطفولة العقلية فى عمر البشرية. مرحلة التفسير الغيبى للظواهر، ولابد أن تختفى هذه المرحلة بمجرد أن يحل التفسير العقلى الفلسفى للظواهر، كما أن التفسير العقلى الفلسفى ينبغى أن يختفى بدوره ليحل محله التفسير العلمى التجريبى، وهذه المراحل الثلاث تمثل موقف الإنسان من ظواهر الطبيعة وتفسيرها، فالتفسير الدينى أولاً، ثم التفسير العقلى الفلسفى، ثم التفسير العلمى. وقد أصبح هذا التقسيم الثلاثى للتاريخ أشبه بالمسلمة التى قبلها العلماء على أنها حقائق لا تحتاج إلى نقاش. وقد انتقل هذا التفسير بدوره إلى عالمنا العربى، وبات منهجاً من مناهج الدرس الأكاديمى فى أقسام الاجتماع بالجامعات العربية، ويلقن للطلاب على أنه حقائق تاريخية تكاد تصل فى وثاقتها القضايا الرياضية. وأخذ صفة العموم والشمول لكل تاريخ الإنسان فى أى مكان وحضارة. وهذه القضية من وجهة نظرنا تحتاج إلى مراجعة دقيقة، وإعادة نظر فى أسبابها وفلسفتها ونتائجها.

أولاً - إن هذه المستويات الثلاثة أو التقسيم الثلاثى لعلاقة الإنسان بالكون وتفسيره نرى أنها لا تسير بالضرورة فى حياة الإنسان المؤهل لهذا الموقف - فى هذا الخط التناقضى - كما صوره علماء الاجتماع - بل الأولى من ذلك أن يقال إنها تسير فى خط متجاور أو متواز. فهى متزامنة فى حياة الفرد، وبالتالى هى متزامنة فى حياة الأمم، والشخصية السوية المتكاملة نجدها مؤمنة بالمستويات الثلاثة، وأنها متزامنة متجاورة متعاونة فى وقت واحد وليست متعاقبة أو متناقضة ينفى لاحقها سابقها، كما صورها علماء الاجتماع، بل إن الإنسان لا يستطيع أن يحقق ذاتيته بشكل تكاملى إلا إذا جمع فى موقفه من الظواهر بين هذه المستويات الثلاثة للتفسير التى تمثل

فى شخصية الإنسان الجانب الحسى المادى، والجانب العقلى العلمى، والجانب الروحى، فإنه يدرك الظواهر المحسوسة بالأدوات الإدراكية الحسية، ثم يفسر العلاقات السببية - بين نوع الظاهرة وأسبابها بعمله العقلى، ثم يتساءل عن القوة الكامنة فى الأسباب التى أنتجت هذه الظاهرة. من الذى أودع هذه الأسباب قوة التأثير فى المسببات، ومن الذى حفظ لها قوة التأثير حتى أخذت شكل الثبات والاطراد، بحيث كلما تكررت الأسباب تكرر معها وقوع الظاهرة وتفسير العلاقة بين السبب والمسبب؟ هو عمل العقل ومنطق العلم.

ولكن البحث عما وراء السبب الظاهرى وعمن أودعه قوة التأثير فى المسببات هو غذاء الروح لتصل من خلاله إلى إثبات مسبب الأسباب، الذى غاب عنه أصحاب الفكر المادى، والذين توقفوا عند مجرد ملاحظة الظاهرة وارتباطها بأسبابها دون أن يتساءلوا: عما وراء ذلك هم الذين تحدث عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾، ومن هنا نرى أن تفسير الظواهر يمر بمستويات فكرية ذهنية متزامنة فى الشخص الواحد، وليست مراحل زمنية متعاقبة، ولا متنافية، ولا متناقضة، وبالتالى فإن ملاحظاتها على مستوى الشخص الواحد، ثم على مستوى الأمم والشعوب يجعل تفسير دور كايم لهذه المراحل تفسيراً خاطئاً. فهى ليست مراحل تاريخية تنتهى أحداها ليحل مكانها الأخرى، ولكنها مستويات متكاملة ومتزامنة فى حياة الأفراد والشعوب على سواء.

ولو جاز تفسير هذه المستويات على أنها مراحل متعاقبة لكان أولى بها أن يكون ترتيبها على نحو معاكس تماماً لما قال به علماء الاجتماع، ذلك أن ارتباط الإنسان بالواقع الحسى وما تمليه عليه الوقائع التجريبية فى حياته اليومية أسبق إلى ذهنه وعقله من مرحلة التساؤل حولها وحول أسبابها، فضلاً عن تفسيرها تفسيراً دينياً، وهذا واقع ومشاهد فى حياة كل منا

نلاحظه صباحًا ومساءً، حتى لدى الأطفال والحيوان نجد كثرة المشاهدات المحسوسة لدى الطفل تكون عنده مخزونًا معرفيا وتجعله يتوقع حدوث الظاهرة عند مشاهدته لما يسبقها من أسباب دون أن يجد نفسه فى حاجة إلى تفسيرها أو التساؤل عن العلاقة بينها وبين أسبابها، وهذه مرحلة الطفولة النفسية التى تجد لذتها مرتبطة بالمحسوسات لشدة حاجتها العاجلة إليها وارتباطها بحياتها اليومية، أما مرحلة التعليل والتفسير، فإنها مرحلة تالية؛ لأن النفس الإنسانية فى هذا الشأن تكون فى موقف القابل للفعل المتأثر بما يشاهد، وليس فى موقف الفاعل أو المتسائل: فيكون التفسير التعليلى للظاهرة مرتبطًا بعملية التجريد العقلى والتعميم فى التصورات الذهنية ومنطق العلم التجريبى، عادة ما يربط الظاهرة المحسوسة بأسبابها الحسية.

ثم فى مرحلة تالية يتجاوز العقل هذا المستوى الحسى إلى البحث عن العلل البعيدة ليتساءل عما وراء السبب المحسوس من قوى يتساءل عمن جعل السبب مؤثراً فى مسببه؛ لأن الأثر فى حقيقته وجود وفعل، يحتاج فى أداء وظيفته وعمله إلى وجود أكمل منه وفاعل أكبر منه. وهذا هو التفسير الدينى للظواهر. فهو تفسيراً أوليًا فى الترتيب، ولكنه تفسير يأتى فى المرحلة الثانية، أو المستوى الثالث، هذا لو قلنا جدلاً بتفسير المستويات التاريخية الثلاثة، حسب رأى علماء الاجتماع، فالتفسير الطبيعى للمعارف الإنسانية إنها تبدأ بالمحسوسات وارتباط الظواهر الحسية بعضها ببعض، ثم يكون البحث عن العلل البعيدة للظواهر الحسية وارتباط بعضها ببعض، ثم يكون البحث عن العلل البعيد للظواهر بعد تفسيرها تفسيراً حسيًا، وبعد اكتشاف العلاقات المتبادلة بين الظواهر وأسبابها، وهذه هى مراحل العمل العقلى ومستويات التفسير العلمى، ثم تأتى النظرة التحليلة التى تعود بالنفس الإنسانية إلى البحث عن العلل البعيدة

من خلال طرح الأسئلة الكثيرة، وذلك حين يتسع أفقها، فتتجاوز الكون المحسوس وظواهره إلى البحث عما وراءه من علل وأسباب تحكم مسيرته وتنظم حركته في شكل غائي لا فوضى، في شكل ونسق يحقق معنى العناية الإلهية بالكون والعناية بأجزائه، ويحقق غاية الخالق من وجوده وإرادته فيه وبدون هذا التفسير لا ينتظم معنى القصد أو الغاية أو العناية الإلهية لخالق الكون جل وعلا؛ لأن هذا التفسير يربط الكون بخالقه من خلال منظومة الأسباب والمسببات الحسية من جانب، ومن خلال الإيمان بما وراءها ووجود مسببها من جانب آخر، وبدون هذا التفسير لا يكون إلا التفسير العبثي الفوضوي، وهذا ما يؤدي إليه التفسير التاريخي للدين، كما يسمونه في علم الاجتماع.

ونحن لا نجد صعوبة في ربط هذا التفسير الثلاثي للتاريخ بقصة الصراع بين العلم والكنيسة التي سبقت الإشارة إليها؛ لأن هذا التفسير يرجع تاريخه إلى أوجست كونت. وهو أحد الذين عاشوا هذه المأساة، وأحد الذين رفضوا تفسيرات الكنيسة الخرافية للظواهر العلمية، فهو تفسير محلي مرتبط بظروفه الثقافية والحضارية، ومن الخطأ تعميمه على الحضارات الإنسانية الأخرى ـ خاصة الحضارة الإسلامية التي من أهم خصائصها رفض الخرافة ومحاربة الجهل، والتي تجعل من منطق العلم فريضة وشريعة. فلم يكن يوماً ما منطق العقل فيها متناقضاً مع منطق الوحي، ولا منطق التدين رافضاً لمنطق العلم، فما يجوز تصوره في بيئته لا يعني بالضرورة إمكان وقوعه في بيئة أخرى، ومن هنا نرفض تعميم هذا التصور لخصوصيته بالبيئة الأوروبية التي أفرزته، والحضارة الغربية التي أظلته، ولشدة تناقضه مع التصور الواقعي، كما عليه واقع الإنسان المعرفي. فإن تاريخ الإنسان ليس حلقات متناقضة، كما صوره هؤلاء، وإنما هو حلقات متكاملة، كما يوضحه الفكر الإسلامي، فمن المعلوم أن الإنسان خلق خلوا

من العلم والتصور، ثم زوده الله بأدوات تحصيل هذا العلم الذى يبدأ بالمحسوسات، ثم ينتهى بالمجردات. قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨]، وتجد أن هذه الأدوات تذكر فى القرآن الكريم بهذا الترتيب، الذى يبدأ بالأدوات الحسية من السمع والبصر، ثم ينتهى بالفؤاد فى صيغة الإفراد أحيانًا، وفى صيغة الجمع أحيانًا أخرى، وهذه الأدوات هى التى تعمل وتباشر نشاطها فى حياة الإنسان بهذا الترتيب، الذى يبدأ بالمحسوسات، وينتهى بالمعقولات والمجردات، وهى كلها تعمل عملها فى خطوط متكاملة ومتعاونة، وليس فى خطوط متتالية متعارضة، كما يذهب الوضعيون.

ومهما يكن من أمر، فإن التفسير التاريخى للدين إذا جاز الأخذ به فى حضارة الغرب، فذلك مرتبط بالظروف التاريخية التى تولد فيها هذا التفسير، فلا يجوز نقله أو الأخذ به فى الدراسات الاجتماعية عندنا. ولكن للأسف الشديد فإن هذا التفسير قد انتقل إلينا بهمومه وعيوبه ونقائضه ضمن ما نقل إلينا من الغرب دون أن يحاول أحد من المتخصصين التعرض له بنقد أو تمحيص، وأصبح فى عرفهم من المسلمات التى لا تقبل النقاش، وأخذوا يتعبدون به فى مؤلفاتهم ويلقنونه الطلاب فى دور العلم ومعاهده.

يتبين لنا مما سبق أن مصطلح التنوير نشأ فى هذا الجو الثقافى، الذى أفرزته طبيعة الصراع بين الكنيسة والعلم، فجاء محملاً بالمعانى الآتية:

أ ـ الرفض المطلق للكنيسة: وأن آراء رجالها تجسيد للجهل والخرافة ومناقضة للعلم، وقد حل لفظ الدين محل الكنيسة، وانتقل المعنى الذى يتعلق بالكنيسة من رفضها العلم ومحاربتها للعلماء لينسحب على الدين بالمعنى العام، وهذا أخطر ما فى هذه المشكلة.

ب ـ ترتب على ذلك أن رفع العلماء فى أوروبا لواء الحرب ضد كل ما هو كنسى (دينى) ليفسحوا بذلك الطريق أمام العلم والعقلانية ليحل التنوير محل الظلام، والعقل محل الخرافة.

جـ ـ ترتب على ذلك أن ظهرت نزعة الإلحاد التى سادت العصر بأكمله، وكان من أهم آثارها التوجه العام نحو إشباع الغرائز الدنيا فى الإنسان على حساب كل ما هو دينى، وبات معنى القيم والأخلاق كلمات باهتة لا معنى لها ولا مضمون، وارتبط ذلك أيضًا بمعنى التنوير، حيث أصبح كل من يتمسك بالمفاهيم الدينية والقيم الأخلاقية رمزاً للرجعية والتخلف، وصار المنحل أخلاقيًا ودينيًا هو رجل العصر الحديث «المودرنيزم».

ومما يؤسف له أن كل هذه الملابسات التى ارتبطت بمصطلح التنوير انتقلت معه إلى الشرق العربى، وأصبحت من لوازم التنوير، فلم يعد التنوير قاصراً على رفض الجهل ومحاربة الخرافة، وإنما امتد معناه ليشمل تغيير العادات والسلوك والقيم والمفاهيم الثابتة فى بلادنا، والمرتكزة على الأبعاد الدينية والخلقية. وتطور ذلك عند البعض إلى رفض الإيمان بالغيب، فجعلوه من الخرافات التى نادوا بضرورة التخلص منها.

حقيقة التنوير :

بعد هذه المقدمات التى نرى أهميتها فى توضيح معنى التنوير، الذى نعيش حركته الآن نود أن نطرح سؤالاً مهمًا حول حقيقة التنوير الذى تسعى إليه الشعوب، وما هى أسسه وركائزه، إن كلمة التنوير فى لغتنا العربية مأخوذة من الفعل «نوَّر» الرباعى ومصدره «تنويراً»، بمعنى أنار لغيره الطريق. وقد يكون ذلك التنوير حسيًا، وقد يكون معنويًا. فإنارة الطريق الحسى له وسائله المعروفة، كالمصباح والكهرباء مثلاً، وليس هذا المعنى هو المقصود عند استعمال هذا المصطلح بين المثقفين، وإنما المقصود هو الجانب

المعنوى، بمعنى تنوير العقول، والقضاء على ما فيها من ظلام، وكذلك تنوير الحياة الثقافية للمجتمع والقضاء على ما فيها من جهل، وكذلك تنوير الحياة السياسية، والقضاء على ما يشوبها من ظلم ودكتاتورية. كذلك فإن ركائز هذا التنوير تتمثل فى أمور محددة تتناول حياتنا فى شئونها المختلفة، السياسية والاجتماعية والثقافية.

أ ـ فى المستوى الثقافى: يرتكز التنوير على أسس أهمها: العلم ـ العقلانية.

ب ـ وفى المستوى الاجتماعى: يرتكز التنوير على أسس أهمها: الحرية ـ المساواة.

جـ ـ وفى المستوى السياسى: يرتكز التنوير على أسس أهمها: العدل ـ الديموقراطية (الشورى).

هذه الركائز الأساسية هى عمدة الإصلاح فى كل نهضة. فلقد نهضت بها أوروبا حديثًا، ونهض بها العالم الإسلامى يوم أن كان الإسلام عاملاً محركًا لسياسته، وحاكمًا لشئون الحياة فيه، ضابطًا لها بأوامره ونواهيه علميًا وثقافيًا؛ واجتماعيًا.

وهذه الركائز فى التصور الإسلامى لإقامة الدولة تمثل أوامر إلهية نزل بها الوحى، وفرضتها شريعة الإسلام، وتعبد الله بها المسلمين، والتفريط فى هذه الركائز أو فى واحدة منها يعتبر جريمة فى حق المجتمع، ومسئولية يحاسب عليها المسلم أمام الله يوم القيامة؛ لأنها تنبع من صميم الاعتقاد الإسلامى، وإهمال الأخذ بها أو التفريط فى واحد منها يجرح الاعتقاد ويجعل صاحبه ـ أيًا كان موقعه ـ محلاً للمساءلة أمام الله وأمام المسلمين. والأحاديث النبوية والآيات القرآنية أكدت فى أكثر نصوصها على ضرورة هذه الركائز كأسس لبناء الدولة الإسلامية.

ركيزتا العلم والعقل :

ولكل ركيزة من ركائز النهضة التى سبق أن أشرنا إليها ما يتعلق بها من النصوص والآثار التى تدعو إليها، فضلا عن أنها كلها قد مارسها المسلمون عمليًا، وأصبحت واقعًا عاشه المسلمون فى حياتهم فى سلسلة متعاقبة من التاريخ.

والأخذ بهذه الركائز واعتبارها حلقات مهمة فى منظومة التطور النهضوى، الذى تحرص عليه الشعوب هو المعيار الصحيح لحركة التنوير التى تنشدها الأمة. ولاشك عندنا أن أوروبا قد نهضت بمبدأ العلم والاحتكام إلى العقل فى مواجهة الجهل والخرافة عند الكنيسة، كما أن نهضتنا المعاصرة ترتبط أيضًا بالأخذ بهذين العاملين، وليس ذلك لأن أوروبا نهضت بهما، لكن لأنهما معًا ـ العلم والعقل ـ أساس النهضة فى كل أمة. ولا توجد أمة حاربت العلم أو رفضت منطق العقل، وحاولت أن تمنى نفسها بالنهضة. إن ذلك شأنه كمن يمنى نفسه بالحصاد دون أن يبذر الحب أو ينتظر النتائج قبل أن يحصل المقدمات. تلك قضية بديهية لا يحتاج إقرارها إلى مزيد بيان أو تفصيل.

فكما نهض المسلمون بهما سلفًا ينبغى أن يأخذوا بهما حاضراً ومستقبلاً. لكن نود أن ننتبه هنا إلى نقطتين أساسيتين تمثلان محورا الخلاف بين المشروع الإسلامى والمشروع التغريبى فى مفهوم العلم وفى توظيفه.

تتصل النقطة الأولى بفلسفة العلم، فإنها تقوم فى المشروع العلمانى على قطع الصلة بين عالم الشهادة، الذى هو مسرح العلم ومجال تطبيق نظرياته ومبادئه، وعالم الغيب، الذى يتخذ من عالم الشهادة مقدمة ضرورية وآية للإيمان به، والوصول إليه من خلاله، فإن فلسفة العلم فى أوروبا تبدأ طريقها من المادة، وتنتهى المادة، ولا تؤمن بشىء آخر وراءها

يقود إليه عالم الشهادة أو يدل عليه، ومن هنا اقتصرت بحوثهم على الأسباب الظاهرة الكامنة فى الطبيعة، واعتصموا بها، وجعلوها فاعلة بذاتها مستقلة فى الفعل والتأثير، مبتوتة الصلة عن خالقها، وجعلوا الحديث عن خالق آخر وراء الأسباب الظاهرة فى الطبيعة حديث خرافة، وخارج منطق العلم والعقل معًا، وقالوا لا يجوز أن نسمح لأنفسنا بأن نتجاوز هذه الأسباب المادية بالبحث أو الحديث عما وراءها؛ لأن فى ذلك تجاوزًا لمنطق العقل والعلم إلى منطق الجهل والخرافة، ومن ثم فإن الحديث عن الله ربًا خالقًا للعالم، وخالقًا للأسباب ومسبباتها خارج تمامًا عن دائرة المشروع العلمانى التغريبى للنهضة؛ لأنهم كما سبق يبدأون من المادة وينتهون إلى المادة، ولا شىء وراءها يجوز أن نتساءل حوله أو نبحث عنه، هكذا قالوا وصرحوا فى بحوثهم وكتاباتهم(١). وعلى هذا النحو أخذوا يدعون الناس إلى الإيمان بالعلم المستقل عن المعلم الأول، ويدعون إلى الإيمان بالأسباب مستقلة فى تأثيرها عن الخالق للسبب والخالق لأثره فى المسببات، فجاء عالم الشهادة عندهم منفصلاً عن عالم الغيب ولا علاقة بينهما. وإذا كانت هناك علاقة يؤمنون بها فهى علاقة التناقض التى تجعل الإيمان بأحدهما ينفى الإيمان بالآخر، والدعوة إلى الإيمان بأحدهما تحمل فى طياتها الدعوة إلى نفى الإيمان بالآخر، فإما الإيمان بالمادة فقط، وإما الإيمان بما وراءها. ولعل هذا يفسر لنا كثرة استعمال بعض المصطلحات التى تحمل معنى السخرية والاستهزاء بالمؤمنين بالغيب، حيث يطلقون عليهم مصطلح «الغيبون»، أى المؤمنون بالغيب والغيب عندهم لا وجود له ولا دليل عليه، بل الإيمان به دليل الجهل والخرافة.

والأمر فى ذلك يختلف تمامًا عن مفهوم فلسفة العلم فى المشروع الإسلامى. ففى الإسلام نجد أن العلم مطلب شرعى، وفريضة دينية كثر

---

(١) راجع كتاب ما هي النهضة لسلامة موسى في مواضع متفرقة منه، وراجع يوميات أحمد عبد المعطي حجازي في الأهرام، والسيد ياسين وغيرهم.

الحديث عنه فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة. وكلما ازداد المرء علمًا بالصنعة وبالعالم زاد إيمانه بالخالق، وكلما ازداد عقل المرء تشبعًا بأسرار الطبيعة ودقة قوانينها ازداد خشية للخالق. ولهذا جاءت الآية الكريمة حاصرة لهذا المعنى الدقيق فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨]. والمفروض عقلاً أن العالم المدقق كلما ازداد تحصيلاً لقوانين العلم واكتشافًا لأسباب الظواهر يزداد تساؤله عن خالقها ودقة صنعتها وحكمة الخالق منها وفيها، ليقوده هذا النظر العلمى والتساؤل العقلى إلى الإيمان بالخالق الحكيم، الذى أحسن كل شىء خلقه وأتقن كل شىء صنعه، فيقوده عمل العقل فى عالم الشهادة بحثًا وتنقيبًا وكشفًا عن الأسباب واكتشافًا للعلاقات بين الأسباب ومسبباتها إلى الإيمان بالخالق الحكيم، فلا يعمل العقل فى هذا العالم الغيبى المحسوس المشاهد منفصلاً عن العالم، فهو ليس منعزلاً فى وظيفته الكونية عن عالم الغيب؛ لأنه آيته وبرهانه ومقدمة ضرورية تقود إليه، ومن هنا كثرت الآيات القرآنية التى تأمر العقل البشرى أمر وجوب بضرورة التأمل والتدبر فى هذا العالم من سمائه إلى أرضه اكتشافًا للسنن والقوانين وكشفًا عن العلل والمعلولات الكامنة بين الأسباب والمسببات، وغالبًا تختم هذه الآيات يجعل هذا الكون آية وبرهانًا على الخالق الحكيم.

نعم إن المسلمين فى القرون الأخيرة خذلوا إسلامهم يوم إن عطلوا العقل عن وظيفته الكونية التى دعاه القرآن إلى مباشرتها والنهوض بها؛ لأنه لم ينزل كتاب سماوى ليأمر العقل بتبنى منهج فى البحث الكونى يقوم على الاعتبار العقلى، وملاحظة الظواهر الكونية مثل القرآن، فليس فى الإسلام أطفئ سراج عقلك، ثم اتبعنى، والآيات القرآنية فى هذا المعنى كثيرة ومتنوعة. فمنها ما يتعلق بعالم الأفلاك، ومنها ما يتعلق بالأرض وما عليها، ومنها ما يتعلق بالإنسان وما يحيط من كائنات أخرى تتصل حياتها بحياته. ومن اللافت للنظر حقًا إن كل الآيات المتعلقة بهذه الأنواع تدعوا

العقل إلى الملاحظة وارتباط الظواهر بعضها ببعض كما هو الشأن فى المنهج التجريبى قال تعالى فى الحديث عن بدء الخلق.

قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤]

﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾

[الغاشية: ١٧ – ٢٠]

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٦ – ١١]

﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

[الذاريات: ٢٠، ٢١]

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: ٢٢]

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٨ – ٤٠]

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

[الواقعة: ٧٥، ٧٦]

بالإضافة إلى قسم القرآن بالظواهر الكونية الأخرى، والشمس وضحاها. والعصر والفجر... إلخ.

بل إن القرآن الكريم يعلم العقل كيف يبحث عن الحقيقة فى قضية الخلق والخالق - وهى من أعقد المسائل العقلية - فيطرح مجموعة من الفروض والاحتمالات ليناقش العقل القضية من خلالها. فيقول تعالى:

أخلقوا من غير شىء؟

أم هم الخالقون؟

﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور: ٣٦]

هذه الأسئلة يتضمن كل سؤال منها فرضًا عقليًا عن قضية الخلق تعليمًا وتدريبًا وترويضًا للعقل البشرى ليصل بذلك إلى الحق اليقين.

قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٥ - ٩٩].

ولاحظ أيها القارئ الكريم خواتيم هذه الآيات القرآنية على الترتيب السابق، إن فى ذلك لآيات لقوم يعلمون، لقوم يفقهون، لقوم يؤمنون. إن هذه الآيات ـ وغيرها كثير ـ تستفز العقل وتستثيره ليلاحظ هذه الظواهر. كيف يرتبط بعضها ببعض وجود وعدمًا ليكتشف العلاقات السببية بينها. وهذه أولى خطوات البحث العلمى. ملاحظة الظاهرة واعتبارها مع ما يرتبط بها من ظواهر أخرى وكلها ظواهر محسوسة ومشاهدة.

لم تقرأ فى تاريخ الفلسفة الإنسانية، ولا فى تاريخ الأديان كتابًا حفز العقول حفزا على العلم والتعلم والملاحظة والاعتبار، كما فعل القرآن الكريم، ولكن للأسف الشديد لم يتنبه المسلمون إلى هذه الأوامر الإلهية التى هى المفتاح الوحيد لتحقيق وظيفة الإنسان فى تعمير الكون، كما نبه إليه الشرع بقوله تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾.

إن وظيفة الكون كآية دالة على خالقه، ووظيفة الكون كمخلوق مسخر للإنسان لا ينهض بهما الإنسان إلا بمفتاح العلم. ومن هنا كانت آيات النظر والتفكير والتدبر كلها تتصل بالكون وما فيه من آيات. وملاحظة ظواهره وارتباط بعضها ببعض وجودًا وعدمًا. وهذا يتصل بما نسميه خطوات البحث فى العلوم. ملاحظة الظاهرة ـ واعتبارها بما قبلها وما بعدها وجودًا أو عدمًا.

ولا ينبغى أن يفهم أحد من هذا أننى أقول إن القرآن كتاب فى منهج البحث العلمى، أو أنه وضع خطوات البحث العلمى أو.. أو.. لا ليس هذا من مقصدنا. وإنما الذى أقصده أن نوضح لأولئك الذين يقولون إن الإسلام

يحارب العلم نقول لهم هذا هو كتاب الإسلام ودستوره، وهذا هو موقفه من العلم والعلماء. فأروني كتاباً سماوياً قبله حفز العقل إلى العلم حفزاً بمثل ما حفزه القرآن، أو كتاباً سماوياً غيره ربط بين العلم والعقيدة كأساس لخشية الله، كما ربط القرآن. فلماذا إذن يتقولون على الإسلام وهم لا يعلمون شيئاً عن الإسلام، إلا ما يرونه من واقع المسلمين، ولا شك أنه واقع متردى يدعوا إلى الأسف، وكان الأولى بهم ـ وهم مسلمون ـ أن يحثوا المسلمين على النهوض من هذه الكبوة بالاعتصام بمنطق العلم كمطلب شرعى وأمر إلهى، بدلاً من أن يدعوهم إلى رفض الدين وتنحيته عن واقع الحياة.

إن من الإنصاف أن يفرقوا بين واقع المسلمين وحقيقة الإسلام، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك؛ لأن الحكم على الإسلام من واقع المسلمين فيه ظلم للإسلام من جانب، وفيه مجافاة للمنهج العلمى من جانب آخر.

إن وظيفة عالم الشهادة فى التصور الإسلامى أن يقود العالم به والمتأمل فى دقة صنعه، وما أودعه الله من أسرار ومكنونات يتم الكشف عنها آناً بعد آن. وما فيه من دلائل وبراهين تدل على العناية الإلهية، كما يقول ابن رشد: يقود الناظر المتأمل إلى الإيمان بخالق هذا الكون، ولكن فلسفة العلم الغربى التى يدعوننا إلى الأخذ بها وقفت بأصحابها عند منتصف الطريق، وضاع منها النصف الآخر، وبالتالى ضاع منها الموقف الكونى بكامله، حيث اقتصروا على المقدمات، وأهملوا البحث عن النتيجة، فلم يصلوا بذلك إلى شىء.

إن الأسباب فى التصور الإسلامى فاعلة ومؤثرة، هذه حقيقة نزل بها القرآن وحث عليها الشرع، ويجب الإيمان بها، والأخذ بمفهومها قال تعالى: ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون ﴾. وقال تعالى: ﴿ أنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ﴾ وباء السببية تكرر ذكرها فى القرآن

كثيراً، ولام التعليل ورد ذكرها فى القرآن الكريم كثيراً، تكرر ذلك فى القرآن الكريم بشأن الأسباب الطبيعية وبشأن الأفعال الإنسانية على سواء، ليجعل ربط الأسباب بمسبباتها قاعدة وقانونًا يستقر فى ذهن المسلم، فلقد ذكر القرآن الكريم أن نزول المطر سبب فى إنبات الزرع، وفى القرآن كذلك «أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون»، والإيمان بهذه لا يتناقض أبداً مع الإيمان بتلك.

وفى القرآن الكريم ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]. والإيمان بخالقية الله للجنين لا يتعارض مع الإيمان بمشروعية الزواج والإنجاب كسبب مباشر لذلك، وباء السببية ولام التعليل، كما قلنا تكرر ذكرهما فى القرآن على مستوى الأفعال الكونية، وعلى مستوى الأفعال الإنسانية. وهذه حقيقة مقررة فى الإسلام.

ولكن هذه الأسباب ومسبباتها هى فى النهاية مخلوقات لله. والأثر الكامن فى السبب الفاعل فى المسبب هو كذلك مخلوق لله، إن شاء نزعه الله من السبب فلا يقع المسبب، وإن شاء أودعه السبب وعطله عن الفعل بوجود المانع الأقوى منه، وإن شاء عطل المسبب عن قبول الأثر الفاعل، فلا ينفعل به فلا يقع المسبب أصلاً لتقع المعجزات على يد الرسل والأنبياء تأييداً لصدقهم، وبرهانًا على صحة دعوتهم؛ لأن القضية كلها كامنة فى قوله سبحانه: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والحديث فى هذا الموضوع بتفصيلاته قد يخرجنا عن الحد المرسوم لنا فى مثل هذه العجالة. ولكن أردنا التنبيه هنا إلى موطن الخلاف فى هذه النقطة بين المشروع العلمانى التغريبى، والمشروع الإسلامى فى فلسفة العلم، فإن المشروع العلمانى قد اختزل الموقف الوجودى كله فى جانبه المادى وجعله قاصراً على البعد الحسى للوجود. فكان شبيهًا بالموقف الدهرى، الذى تحدث عنه القرآن الكريم فى قوله سبحانه: ﴿إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت

ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾. فرد عليهم القرآن بقوله: ﴿ ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾، ففى واقع الأمر ليس معهم من دليل على صحة قولهم، إلا الجهل بالدليل وعدم العلم به، فاتخذوا من عدم العلم بالدليل دليلاً على عدم الوجود الذاتى، وتلك خطيئة مرذولة فى منطق العلم، لا يغفرها ذو عقل أو صاحب منهج، إذ من المعلوم أن نفى العلم بوجود الشيء ليس نفيًا لوجود الشيء فى نفسه؛ لأن عدم العلم ليس علمًا بالعدم، وأنت إذا سألت الواحد من هؤلاء عن دليله على ما يؤمن به ويدعو إليه لا تجد معه دليلا إلا عدم علمه بالدليل. والدليل الذى يجهله نزل به القرآن وناقشه عقليًا، وطلب منه الإيمان به عن علم ويقين لا عن جهل وتقليد، ولكن «وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون».

أما النقطة الثانية: التى هى محور الخلاف بين المشروعين، فتتعلق بتوظيف العلم، فمن الأمور التى نبه إليها الإسلام أن هذا العالم وما يكتنفه من قوانين وعلاقات سببية بين أجزائه ينبغى أن يسخر لصالح الإنسان وتحقيق سعادته؛ لأن الكون كله مسخر للإنسان. قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية: ١٣]. وقال سبحانه: ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾، فالجماد يعمل فى خدمة النبات، والنبات يعمل فى خدمة الحيوان والإنسان، والحيوان يعمل فى خدمة الإنسان، فأنت لو تأملت وظائف الكائنات كلها فسوف تجدها تعمل فى شكل دائرى لتصب خدماتها جميعها لصالح الإنسان، وبالتالى فإن العلم والاكتشافات العلمية ينبغى أن تعمل فى هذه الدائرة فى خدمة نوع الإنسان كله. وليس لخدمة لون من البشر على حساب لون آخر. ولا تعمل لخدمة جنس على حساب جنس آخر. إذا اختل هذا الميزان الشرعى فى توظيف العلم ومكتشفاته، فإن ضرر العلم على النوع الإنسانى يكون أكثر من نفعه، ذلك أن المشتغلين بالعلم فى كل أمة هم الأقل عددًا بالنسبة لغيرهم، وبالتالى فلو سخر هؤلاء العلم لصالحهم هم دون غيرهم لأدى

ذلك إلى نكوص العلم عن أداء وظيفته فى خدمة النوع الإنسانى، بل قد يؤدى إلى دماره وخرابه، كما هو الشأن الآن فى أرجاء العالم، فبدلاً من أن يوظف العلم لصالح النوع الإنسانى، وظفه أصحابه لخراب البلاد وقتل العباد فى الحروب وفى التسلح وتصنيع الأسلحة المدمرة، ولا يخفى على أحد كمية الأسلحة الذرية والبيولوجية التى تهدد العالم الآن. والتى يستذل بها دول الغرب العالم الثالث، وتحت وطأة الخوف منها ينهب الغرب ثروات العالم الثالث وخيراته.

إن التقدم العلمى الذى أحرزته أوروبا وأمريكا أمر تفخر به البشرية، ولا شك فى ذلك. لكن كيف توظف هذه الدول بحوث العلم ونتاجه؟ كيف تستذل به الشعوب أو كيف تتحكم به فى مصائر الشعوب؟ كيف تحكم به على بعض الشعوب بالخراب والدمار والتشريد؟ كيف تسخره لصالح الكيان الصهيونى لتشرد به شعبًا بأكمله وعلى حساب العرب؟

إن توظيف العلم لصالح الإنسان مهمة إنسانية وشرعية تكتمل بها وظيفة الإنسان الكونية فى إعمار هذا العالم. وهو فى نفس الوقت مسئولية شرعية وأمانة دينية استخلف الله الإنسان عليها، حيث يسأل عنها يوم القيامة، كما تحدث الرسول ﷺ عن ذلك فقال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع...»، فذكر منها وعن علمه ماذا عمل به، والحديث ذكر العلم بالمعنى العام، فلا وجه لتخصيصه هنا بالعلم الشرعى فقط. فالمفترض فى العلم أنه يعمر ولا يخرب، يبنى ولا يهدم، يسعد الإنسان ولا يشقيه، تلك وظيفة العلم النافع وهذه رسالته. لو أن المليارات التى تنفق يوميًا على صناعة التسليح للدمار والخراب وظفت لرفاهية النوع الإنسانى وإسعاده لما كان هذا التفاوت اللامعقول بين شعوب الأرض. وما وجدنا شعوبًا تفترش الثرى وتلتحف العراء، وأخرى تفترش الحرير وتلتحف الديباج. إن سوء توظيف العلم على يد الغرب هو المسئول عن هذا التفاوت المذهل بين الشعوب، ولا حل لهذه المشكلة إلا أن يوظف

العلم بروح إسلامية، ويعمل لإسعاد النوع الإنسانى كله، وليس صالح نوع واحد، أو جنس واحد على حساب الآخرين.

هاتان النقطتان (فلسفة العلم وتوظيف العلم) تمثلان خلافًا جوهريًا بين العلم فى التصور الإسلامى والمشروع العلمانى التغريبى.

العقـــل :

أما العامل الثانى من عوامل النهضة الثقافية، فهو العقل والتفكير العقلانى فى مواجهة الخرافة والتفكير الخرافى، وفى الإسلام نجد أن العقل هو مناط الأهلية للخطاب الإلهى تشريفًا وتكليفًا، وهو حجة الله على عباده بالتكليف أمرًا ونهيًا، وفاقد العقل ليس مؤهلاً للخطاب الإلهى أصلاً لا أمرًا ولا نهيًا، وهو يعيش خارج دائرة التكاليف الشرعية. وبالتالى خارج دائرة المساءلة، ولم نجد فى كتاب سماوى سابق على الإسلام خطابًا للعقل تكريمًا وتشريفًا واحترامًا، كما جاء فى القرآن الكريم، ولا أريد أن أكرر هنا كلاما يقال كثيرًا حول تعظيم العقل والإعلاء من شأنه كميزة خص الله بها الإنسان دون بقية الكائنات الأخرى ليصبح بذلك أهلاً للخطاب الإلهى، فإن العقل وسيلة لفهم القرآن وأداته، وهو المؤهل الوحيد للخطاب الإلهى للإنسان ولو تخلف العقل لسقط معنى الخطاب الإلهى، وفات مقصوده، وفى نصوص الخطاب الإلهى تحذيرات كثيرة من متابعة الهوى أو الخرافة أو حتى الظنون، باعتبار أن ذلك كله فى خصومة مع العقل وفى محاربة له يجب التخلص منها كمدخل طبيعى للاعتصام بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، وإذا كانت وظيفة العلم القضاء على الجهل، فإن وظيفة العقل القضاء على الخرافة، والعقل والعلم معًا هما جناحا النهضة الثقافية للشعوب، ولا قيام لأحدهما فى غياب الآخر، وهما عندنا وجهان لعملة واحدة عنوانها: «النهضة الإسلامية: بالعلم والعقل»، ولا غنى للنهضة عن واحد منها. وهذا ما أكده الإسلام ودعا إليه.

ولعل من المهم فى هذا السياق أن نفهم الحكمة فى أن أول خطاب إلهى للإنسان نزل به الوحى ليرشد الإنسان إلى أساس نهضته فى كل عنصر كان قوله تعالى: ﴿ اقرأ ﴾، وإن هذه القراءة يكون لحمتها وسداها ﴿ اسم ربك الذى خلق ﴾. فلا ينبغى أن نفصل القراءة عن اسم ربك، ولا عن آياته الكونية، لتقود هذه القراءة العقل وصاحبه إلى العلم بالكون وأسراره فى صحبة تلازمية بين قراءة الكون وآياته وخالقه سبحانه لتربط المقدمات بنتائجها، برباط العقل الصريح، الذى لا يخطئ النتيجة إذا أحسن الأخذ بالمقدمات بمنهج علمى رشيد.

وهذا دليل صريح على محاربة الجهل بشتى صوره، سواء كان هذا الجهل متصلاً بأصول الاعتقاد وتنظيم علاقة العبد بخالقه، أم متصلاً بالعادات والأعراف الاجتماعية. أم متصلاً بالتفسيرات العلمية للظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية. ومن اللافت للنظر، ومما ينبغى ألا نهمله فى هذه السياق أن الإسلام يربط الموقف العام من هذه القضية بسلامة العقيدة أو فسادها، فلقد حذر من اللجوء إلى العرافين والكهنة والسحرة. ليستقى منهم المرء ما يظنه علماً أو معرفة تتصل بحياته أو مستقبله. أو تتصل ببعض الظواهر الأسرية، واعتبر ذلك خروجًا على الاعتقاد الصحيح. كما هو خروج على العقل السليم قال ﷺ: «من ذهب إلى عراف أو كاهن. فقد كفر بما أنزل على محمد».

وكم حذر الإسلام من اتباع الظنون والأهواء فى بناء اليقين وإصدار الأحكام سلبًا، أو إيجابًا، واعتبر كل ذلك منشأ للضلال وخروجا على منطق العقل والعلم بقدر ما هو خروج على صحة الاعتقاد.

ركيزتا الحرية والمساواة:

وعلى المستوى الاجتماعى نجد أن مبدأ الحرية والمساواة يمثلان فى الإسلام أساسيات العلاقات الاجتماعية بين الناس. لأمرين مهمين جدا:

الأمر الأول ـ أن هذين المبدأين ينبعان أصلاً من اليقين بالله، وأنه رب كل شيء ومليكه وخالق كل شيء ورازقه وإنه المحي والمميت، وعلى سبيل الإجمال فإن له الخلق والأمر وحده، والإيمان بهذه الحقيقة يعطى المسلم مفتاح التعامل مع الناس من واقع إيمانه بهذين المبدأين، فالإيمان بوحدانية الخالق الرازق يجعل عبودية المرء له وحده، وبقدر إخلاص هذه العبودية لله يتحرر المرء من عبوديته لغيره، وهذا يجعل الإيمان بالحرية على إنها فريضة دينية يحاسب المسلم على التفريط فيها فهى ليست منَّة من أحد ولا هبة من حاكم لشعب، وإنما هى فرض دينى يجب صونه والدفاع عنه. والإيمان بقضية الحرية لا يقتصر على معنى الحرية السياسية فقط، وإنما تشمل الحرية العقائدية والدينية والاجتماعية، ولهذا فإن الفتوحات الإسلامية كان من أهدافها الكبرى تأسيس هذا المعنى للحرية فى نفوس الناس، وحمايته من سطوة حاكم طاغية أو تسلط ظالم مستبد، ولقد جسد هذا الهدف الدينى للحرية القائد المسلم العظيم حين أعلن صراحة «إنما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد»، إنه بذلك يجسد معنى الحرية لتكون واقعًا يعيشها الإنسان، وينعم بها فى مواجهة تسلط ظالم أو طغيان حاكم. إنها مبدأ لا يجد من إطلاقه إلا عدم الإضرار بحرية الآخرين أو النيل منها، أو النيل من عقائد الآخرين أو أديانهم، فكما يحرص الإسلام على حرية أبنائه يحرص بنفس القدر على حرية الآخرين واحترام عقائدهم. فإذا دعاهم إلى الإسلام فيكون منهجه فى الدعوة منهج قرآنى أشار إليه سبحانه فى قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]. فإن استجابوا فيها ونعمت، وإلا فلا سلطان له عليهم. ومن واجبه نحوهم احترام عقائدهم وصون كنائسهم ومعابدهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨].

والحرية من جانب آخر هى التى تمنح المرء إحساسه بالمساواة مع الآخرين لآدم، فكلهم لآدم، وآدم من تراب، والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة حين يؤكدان قضية الحرية، فإنما يؤكدان فى نفس الوقت قضية المساواة والعكس صحيح، ففى القرآن الكريم نجد هذا المبدأ مجسداً فى صيغة قاطعة لا تحتمل التأويل قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، وفى السنة النبوية «كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل العربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»، والرسول (ﷺ) يقول لابنته فاطمة: «يا فاطمة بنت محمد اعملى، فإنى لا أغنى عنك من الله شيئًا، يا فاطمة بنت محمد. لا يأت الناس بأعمالهم يوم القيامة وتأتونى بأنسابكم وأحسابكم».

وعمر بن الخطاب يستدعى ابن الأمير عمرو بن العاص ليقتص منه لغير المسلم. والقضية مشهورة. ويقول له: كلمته التاريخية «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا».

إن ركيزتى الحرية والمساواة يمثلان النسيج الإسلامى، الذى يسرى بخيوطه فى نسيج المجتمع الإسلامى ليربط بين أفراده بهذا الرباط العقائدى ليجعل منه وحدة اجتماعية تستمد قوتها من إيمانها واعتقادها بهذا المبدأ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، «كلكم لآدم وآدم من تراب»، ولأهمية هذين المبدأين (الحرية والمساواة) فى تأسيس المجتمع والحفاظ على كيانه نجد الرسول ﷺ فى خطبة الوداع يخصها بالتفصيل ويجعل منها قاعدة الإصلاح لكل بناء اجتماعى قبل أن يعرف الناس ما يسمى بوثيقة حقوق الإنسان من أربعة عشر قرنًا. إنه ﷺ يقرر فى خطبته الحاجة حقوق الإنسان كنوع وليس حقوق لون معين ولا جنس معين من بنى البشر دون بقية الألوان والأجناس، إنه يقول: «أيها الناس» بهذا العموم الشامل «كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. إن أموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى

بلدكم هذا».

ونصوص الإسلام فى تقديس الحرية والمساواة لا يتسع المقام لسردها، ولكن فقط هى إشارات موجزة لكى يعرف الشباب أن حقوق الإنسان فى الحرية والمساواة لم نجدها مصونة فى غير الإسلام بهذا السياج العقائدى المتين. وهذا بخلاف ما نسمع عنه من مواثيق حقوق الإنسان التى لا يتمتع بها إلا الإنسان الأوروبى أو الأمريكى فقط، فإذا أصابهما أذى أو مس أحدهما ضر تقوم الدنيا ولا تقعد، أما الإنسان المسلم فى البوسنة والهرسك، أما الإنسان المسلم فى فلسطين، أما الإنسان المسلم فى كشمير وفى الشيشان، فإن وثيقة حقوق الإنسان لم توضع لأجله، وليس من نصيبه أن تطبق عليه بنودها، وإنما يباح دمه وعرضه على مسمع من العالم كله، ولا يتحرك لأجله أحد.

ركيزتا العدل والشورى:

لفت القرآن انتباهنا فى أكثر من آية إلى أن العدل ركيزة أساسية لقيام الممالك وبناء الحضارات، وإن غيابه عن نظام المجتمع ومسيرة الحياة فى العلاقات المتبادلة بين الناس من جانب وبين الحاكم والمحكوم من جانب آخر سبب فى انهيار الحضارات وهلاك الأمم.

وحين يقص القرآن الكريم قصص الأمم الماضية وأحوالها لم يكن القصد من ذلك مضيعة الوقت أو التسلية، وإنما كان القصد والغاية خلق الوعى التاريخى فى عقول الناس، الوعى بالتاريخ وأحداثه، التعرف على أسباب انهيار الأمم، وأسباب اندثار الحضارات، حيث يحل الظلم محل العدل، ويسود الاستبداد بدلاً من الشورى، وتقهر الشعوب بسيف السلطان الباطش، إن هذه القصص القرآنية تهدف ـ فيما تهدف ـ إلى أن صناعة الطغيان تتم بيد الشعوب التى تسمح لحكامها أن يستبدوا، وأن الشعوب هى صانعة الطغاة فى كل عصر حين يتنازلون عن ممارسة حقوقهم ليتولى الطاغية تصريف شئونهم، نيابة عنهم بالبطش والاستبداد مرة، وبسلب

حريتهم بوسائل مختلفة مرات ومرات، ولكن النتيجة المحتومة لا يتحملها الطاغية بمفرده، وإنما تعود النتائج السيئة على الأمة التى صنعت هذا الطاغية، أو ذاك.

إن قراءة التاريخ توضح لنا أن الشرق والشرقيين عمومًا يحتكرون صناعة الطغيان، ويباركون ميلاد الطغاة، حتى كاد أن يشبع بين مؤرخى الحضارات أن الطغيان صناعة شرقية خالصة. ولقد جسد القرآن مجموعة من الضوابط التى ساقها فى شكل الصيغ التى أشبه بالقواعد الاجتماعية التى يتضمن كل منها سنة كونية من سنن الله فى خلقه، فإذا مارست الأمم أسباب هذه السنة الكونية كان لابد من وقوع هذه السنة وحلولها بالأمة؛ لأنها لا تتخلف أبدا ما دامت قد وقعت أسبابها، وهذه غاية القص القرآنى وأحد أسبابه الكبرى، الوقوف على هذه السنن وأسبابها ونتائجها ودورها فى بناء الممالك وانهيار الحضارات.

قال تعالى:

١ ـ ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

٢ ـ وقال سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الكهف: ٥٩].

٣ ـ وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ٢١].

٤ ـ وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴿١٣﴾ ﴾ [يونس: ١٣].

٥ ـ وقال سبحانه: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود: ١١٣].

٦ ـ وقال سبحانه: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٥].

إن من سنن الله فى قيام الممالك وانهيارها هو سيادة العدل أو غيابه، وارتباط العدل بنظام الملك ارتباط عضوى، كارتباط الأسباب بنتائجها سلبًا وإيجابًا، ولذلك كان من تراث هذه الأمة «أن الله يقيم الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة، وإن كانت مؤمنة»، وهذا قانون عام أثبت التاريخ صدقه، ونبه إليه مفكروا الإسلام كابن تيمية، وابن خلدون، والفارابى، والكندى، وليس من العدل أن يحتج على عدم صحة القانون بفساد الناس فى سلوكهم أو بظلم بعض الحكام فى عهودهم، فإن ذلك لا يخلو منه تاريخ أمة من الأمم، ولا مجتمع من المجتمعات، فكم من القوانين الرائعة ضاعت هيبتها عند التطبيق على يد الأتباع، وكم من مبادئ سامية ضاعت قيمتها بسبب فساد التطبيق وانحراف الأتباع.

إن ارتباط ركيزتى العدل والشورى بالعقيدة سلبًا أو إيجابًا يعطيها قيمة الحياة فى نفوس الناس فى الممارسة العملية، فى الحكم بين الرعية؛ لأنها تكون حينئذ التزامًا عقائديًا دينيًا، باعثه ذاتى والدافع إليه يقين المسلم بالله وليس إلزامًا قانونيًا يمارس من وقاع الرقابة الخارجية للسلطان أو للمجتمع، فشتان بين هذا وذاك.

إن القرآن الكريم جاء بالأمر الإلهى صريحًا بالعدل وجعله فريضة ملزمة لكل من يتولى شئون الناس، وربطه ربطًا محكمًا بالعقيدة ليستقر فى ذهنية المجتمع أن شئون الحكم وسياسة المجتمع من خصوصيات الاعتقاد السليم واليقين الصحيح، وذلك منطق فطرى فى نفوس البشر محبة العدل وكراهية الظلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ

بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴿٢٦﴾ [ص: ٢٦].

ولقد ضرب الرسول ﷺ المثل والقدوة العملية أمام الصحابة فى تطبيق مبدأ العدل، فلقد جاءه أشراف قريش يشفعون عنده فى امرأة سرقت، وهى فاطمة المخزومية، فعلمهم الرسول أن صيانة الحقوق لا ينبغى أن تضيع بشفاعة الشفعاء، ولو كانوا من أشراف قريش فقال ﷺ: «أتشفعون فى حد من حدود الله. لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. إنما هلك من كان قبلكم إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد».

لقد نبههم الرسول ﷺ إلى مكمن الخطر فى انهيار الممالك وهلاك الأمم. وهو ضياع الحقوق بين الناس، أكل أموال الناس بالباطل، ضياع قيمة العدل وتفشى الوساطات كوسيلة لضياع الحقوق، فمن لا يملك يعطى من لا يستحق، وهذا من أسوأ الأمراض وأخطرها فى سقوط الممالك وانهيارها، والأمر لا يحتاج إلى بسط أو تفصيل أكثر؛ لأن بيان قيمة العدل أمر معلوم من الدين بالضرورة، وكذلك الشورى فقد أمر القرآن الكريم الرسول ﷺ بممارستها، فقال للرسول ﷺ: ﴿وشاورهم فى الأمر﴾.

وجعل من صفات المؤمنين الذين استجابوا لله وللرسول أن ﴿أمرهم شورى بينهم﴾ - وكان الرسول ﷺ يقول لصحابته: «أشيروا على أيها القوم».

فهذه الركائز هى أسس النهضة فى كل الأمم، لا أقول تبناها الإسلام، ولكن أقول ولدت فى ظل الحضارة الإسلامية، وبشهادة ميلاد إسلامية؛ لأن أصولها قرآنية خالصة، وليست هناك حضارة - تبنت نصوصها المقدسة هذه المبادئ مجتمعة إلا الحضارة الإسالمية، وليس فى دساتير الأمم نصوص سابقة على الإسلام تبنت هذه المبادئ وجعلتها غاية ومقصداً لليقين والاعتقاد. إن هذه المبادئ تمثل فى الإسلام عقيدة وشريعة، فهى التزام عقائدى وليست إلزاماً قانونياً، ولعل فى الإيجاز هنا ما يغنى عن الإطناب والتفصيل؛ لأن ذلك له مجال آخر.

بداية المشروع العلمانى

يكاد يجمع الدارسون والمهتمون بعوامل النهضة الحديثة على أن بداية هذه النهضة ارتبطت بعصر محمد على من جانب ، وبالحملة الفرنسية من جانب آخر ، فإن محمد على قد وجه اهتماماته إلى النهوض بمصر زراعيا ، فشق الترع وأقام الجسور والسدود والقناطر ، واجتماعيا وثقافيا ، فأرسل البعثات إلى أوروبا ، وشجع التعليم ، فأقام المدارس ونشر أبناؤه رياح التعليم من بعده فى ربوع مصر

ومن جانب آخر ، فإن معظم الدارسين لهذه القضية يربط بدايتها بالحملة الفرنسية ، ويجعل مطبعة نابليون التى جلبها إلى مصر بداية عهد جديد فى مصر ، يسمى عصر التنوير ؛ لأن الشرق العربى لم يكن له عهد بالمطابع قبل حملة نابليون على مصر

ونحن من جانبنا ندعوا إلى التحفظ فى تقبل هذه الأحكام على إطلاقها ، ذلك أن مسيرة التاريخ فى مصر وقراءة عوامل نهضة عالمنا العربى عموما كانت تسير فى خطها الطبيعى ، وإن بدا هنا بطيئا ، لكنه كان يسير فى اتجاه مخالف فى الأهداف والمقاصد لمن أرخوا لعصر النهضة المصرية بدخول الحملة الفرنسية مصر ، ولا أشك فى أن محمد على قد خطا خطوات ملحوظة فى مسيرة هذه النهضة وبعث عواملها ، كما لا تشك فى أهمية الاحتكاك الثقافى الذى حصل بين رجال الحملة الفرنسية والمجتمع الشرقى عموماً فى مصر وفى عكا ، لكن لا ينبغى أن نبالغ فى هذه القضية فنجعلها بداية لعصر النهضة فى الشرق عموما وفى مصر خصوصا ، فإن المطبعة التى جلبها نابليون إلى مصر لم تكن هى أول مطبعة عرفها الشرق ، كما يدعى أصحاب هذا الرأى ، بل إن الشرق قد عرف المطبعة وتعامل بها قبل حملة نابليون بما يقرب من قرن كامل ، فإن مقر الخلافة فى الاستانة قد عرف الطباعة بتجميع الحروف البارزة التى اخترعها جوتنبرج الألمانى بفضل

أحد أبناء السلطنة، والذى قدم للسلطان أحمد الثالث تقريراً يبين فيه أهمية الطباعة وضرورة الاستعانة بها فى المكاتبات ونشر الثقافة، وبدأت السلطنة تعتمد عليها ابتداء من سنة ١٧٢٨ (١)، كما أن مطبعة بولاق بدأت نشاطها، كما أن مطبعة بولاق بدأت نشاطها الثقافى فى مصر من عام ١٨١٩، أو ١٨٢٢، وأصبحت مطبعة بولاق من هذا التاريخ ركيزة أساسية لنشر أمهات الكتب الثقافية فى مصر والعالم العربى، فلماذا يعول الدارسون على مطبعة نابليون ويجعلونها رمزاً حضارياً لبداية النهضة فى مصر، ويهملون دور مطبعة الخلافة ومطبعة بولاق؟ ولماذا الإصرار على ربط بداية نهضتنا بالحملة الفرنسية فقط؟ إن هذا الموقف يحتاج من الدارسين إلى مراجعة أمينة وقراءة التاريخ بعين العربى المسلم، لا بعين الأوروبى المستشرق.

ومهما يكن من أمر، فإن التيار العلمانى فى مصر بدأ فى أواخر القرن التاسع عشر، واشتد عوده فى مصر إبان عصر الاحتلال، ولا زال يدندن حول قضايا التغريب إلى الآن، مستعملاً فى ذلك ألفاظ الغرب ومصطلحاته مثل التنوير - التقدمية - العلمانية.

وأنشئت فى مصر مؤسسات ثقافية حرسها الاستعمار، وسهر على تغذيتها بالأقلام والعقول التى أخذت عن الاستشراق منهجه فكراً وثقافة، وجاءت هذه العقول إلى المنطقة لتبث أفكارها وتنشر آراءها خلال نشاط هذه المؤسسات، وحاولوا بطرق مختلفة نقل المشكلات التى مثلت بؤرة الصراع بين الكنيسة والعلم فى العصور الوسطى بأوروبا بملابساتها وظروفها إلى مصر والعالم الإسلامى، واستوردوا لها نفس الحلول التى تخلص بها العلماء من سطوة الكنيسة فى الغرب، دون أن يفطنوا إلى أن الإسلام فى موقفه من العلم، ليس هو الكنيسة فى موقفها من العلم، وأن

---

(١) راجع الإسلام المعاصر: د. علي مراد بالفرنسية، ترجمة محمود علي مراد صـ٩٤، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٤.

المجتمع الإسلامى ليس هو أوروبا فى عصورها المظلمة.

فنادوا ـ ولا يزالون ـ بفصل الدين عن الدولة، كما فصلت أوروبا السلطة السياسية عن السلطة الدينية ناسين أو متناسين أن السلطة الدينية ليس لها فى الإسلام مكان ولا مكانة، لا على خريطته الأصولية، ولا على خريطته التاريخية.

ونادوا ـ ولا يزالون – بالدولة المدنية التى ينبغى أن لا تخضع للإسلام فى شىء. لا فى الحكم، ولا فى الثقافة، ولا فى شئون الحياة الاجتماعية والمدنية. فنادوا بأن يكون التعليم مدنيًا لا دينيًا، وأن يكون الحكم لا دينيًا، وأن يكون شعار الدولة الرسمى هو اللادينية. هكذا نادوا فى الماضى ولا يزالون فى الحاضر.

كما نادوا ـ ولا يزالون ـ بأن تحذو المرأة فى مصر حذو المرأة فى أوروبا، خاصة فى فرنسا حذو القذة بالقذة فى العادات والتقاليد.

كما نادوا ـ ولا يزالون ـ بمساواة المرأة بالرجل فى الميراث تطبيقًا لمبدأهم اللادينى، وليس ببعيد عن العقلية المصرية ما جرى على صفحات الجرائد والمجلات من السباب والشتائم والاتهامات، واستدعاء السلطات على من كتب تقريراً علمياً ينقد فيه مؤلفات بعض العلمانيين الذى ينادون بمساواة المرأة بالرجل فى الميراث، ولقد قامت الدنيا ولم تقعد إلى الآن بسبب هذا التقرير الذى انتصف فيه صاحبه لدينه ولوطنه.

وتمخض نشاط العلمانيين فى نهاية القرن الماضى وأوائل هذا القرن عن مجموعة من المؤلفات التى مثلت المرجعية الفكرية للعلمانيين المعاصرين، فألف قاسم أمين كتابيه عن المرأة، «تحرير المرأة»، و«المرأة الجديدة»، وألف سلامة موسى كتابه: «ما هى النهضة».

وألف على عبد الرازق كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، وألف طه حسين «مستقبل الثقافة فى مصر»، وكتابه «فى الشعر الجاهلى»، لكنه رجع عن

آرائه فى هذين الكتابين فيما بعد.

كما ألف كرومر المستشار الإنجليزى للاحتلال فى مصر كتابه «مصر الحديثة، وجسدت هذه المؤلفات وغيرها مطالب العلمانيين فى الوطن العربى التى نوجزها فيما يلى:

١ ـ أن يحذف من الدستور النص على أن الدين الرسمى للدولة هو الإسلام لتصبح دولة علمانية لا دينية، وأن يحذف من القوانين كل ما يتصل بالإسلام كعقيدة وشريعة.

٢ ـ أن تنقى برامج التربية والتعليم من المواد الدينية، فيحذف من مناهجها كل ما يتعلق بالإسلام، والتربية الإسلامية، ليصبح التعليم علمانيًا لا دينيًا.

٣ ـ ليس هناك شىء مقدس فوق النقد، ولابد أن تخضع النصوص الدينية (الكتاب والسنة) للنقد العقلى، فما قبله العقل منها يؤخذ به، وما لم يقبله العقل لا يعمل به.

٤ ـ مساواة المرأة بالرجل فى الإرث الشرعى، وفى حق القوامة على الرجل، والعصمة، وكما سمعنا فى مؤتمر السكان سنة ١٩٩٢م من تكوين الأسرة غير التقليدية، يعنى المعاشرة الجنسية بدون رباط الزوجية، ولقد وقف شيخ الأزهر جاد الحق على جاد الحق معلنًا رفضه لقرارات هذا المؤتمر كما رفضها كذلك أجهزة الدولة الرسمية.

والمؤلفات التى سبق ذكرها تجسد هذه المطالب وتعبر عن هذا المشروع فى نواحيه الثقافية والاجتماعية والسياسية، ومن الإنصاف أن نشير هنا إلى أن أصحاب هذه المؤلفات قد رجع بعضهم عن آرائه فى أواخر أيامه، لكن ما زال أثرها حيًا فى عقول تلامذتهم، يحركهم، ويتغنون بما فيها على أن فيه الخلاص وبه النهوض، ولم يعلم أصحاب هذه الأصوات أن مؤلفى هذه الكتب التى يحتفلون بها قد رجعوا عن آرائهم فيها، بل إن بعضهم قد

صرح بنقيض ما ذهب إليه فى هذه المؤلفات.

واقتداء بالغرب، فكما أبعدت السلطة الكنيسة عن الحياة وشئونها قام فى مصر من نادى بضرورة فصل الدين وإبعاده عن شئون الدولة، وألف على عبد الرازق كتابه «الإسلام وأصول الحكم» استعار فيه أراء المستشرقين، خاصة القساوسة واليهود، حاول المؤلف جاهداً أن يقول فى هذا الكتاب: إن الإسلام دين لا دولة، وأن حديثه عن توحيد المؤمنين به إنما هو حديث عن الوحدة الدينية، وليس حديثًا عن الوحدة السياسية، وأن ولاية الرسول على المسلمين ولاية روحية فقط، أما ولاية الحاكم فهى ولاية مادية، وأجهد المؤلف نفسه فى تلمس الأدلة التى حاول أن يؤيد بها دعواه فى الفصل بين وظيفة الرسول ووظيفة الحاكم، ولم يحاول أن يقرأ قوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا﴾، ولسنا فى مجال الرد على هذا الرأى أو ذاك، وإنما نعرض فقط تاريخ الموقف العلمانى وتسلسل الأحداث، وارتباطها اللاحق منها بالسابق.

وقد شكلت لجنة من علماء الأزهر لتفنيد دعاوى هذا المؤلف والرد عليها، لكن ما زالت الأصوات - حتى يومنا هذا تنادى بالدولة المدنية العلمانية وتنحية الإسلام عن شئون الحياة العملية، ولم يعلموا أن على عبدالرازق قد رجع عن رأيه ١٩٤٦، بعد أن تبين الحق له، وقال بأن الإجماع أصل من أصول التشريع الإسلامى، وأن الإمامة ثابتة بإجماع الأمة.

٣ - والتقت أهواء العلمانيين على تمجيد النموذج الغربى حضارة ومدنية، فكراً وثقافة، علاقات اجتماعية، ونظام حياة ووضع سلامة موسى كتابه «ما هى النهضةش يطالب فيه المجتمع المصرى إذا أراد أن ينهض كما نهضت أوروبا فعليه أن يحذو حذوها فى العادات والتقاليد، فى

المأكل والمشرب، فى الفكر والثقافة، فى التخلص من الأديان، كما تخلصت أوروبا، ويصرح بأنه لا سبيل لنا إلى النهوض إلا بالتخلص من الغيبيات، وأن نجعل هذه الحياة الدنيا هى الهدف والغاية، يجب أن نعمل لها لا لغيرها، فليس وراءها ما يستحق أن نعمل لأجله، وأن الإيمان بأن هناك دار نعمل لها غير هذه الدار الدنيا محض خرافة وعين الجهل، ولم تتقدم أوروبا إلا حين رفضت هذه الخرافات ومحاربتها هذه الجهالات، وكتاب سلامة موسى يقوم كله على أساس هاتين الفكرتين:

الأولى ـ أن تجعل الغرب قبلتنا فى كل شىء، فنحذوا حذوه، وكرر نفس القضية طه حسين فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر»، ولا زالت الدعوة مستمرة إلى وقتنا هذا.

الثانية ـ إنكار الأديان، والعمل من أجل الدنيا، إذ ليس وراءها شىء يجب أن نعمل له، والحديث عن اليوم الآخر هو حديث خرافة، ويترتب على هذه النقطة الثانية ضرورة التخلص من كل فكر دينى، أو عقيدة تدعو إلى الإيمان باليوم الآخر.

بدأت هذه الفكرة سافرة فى كتابات سلامة موسى، وما زالت إصداؤها تتردد حتى يومنا هذا فى كتابات دعاة التنوير، والذى يتابع ما ينشر فى صفحات الجرائد اليومية، واستعمال كلمات الجهل ـ الخرافة، الرجعية، ويتعرف على المقصود بهذه الكلمات يدرك تمامًا أن المسلسل ما زال مستمرًا، قد ينشط أحيانًا ويشتد عوده، وقد يخبو ويذبل أحيانًا أخرى، حسب الظروف السياسية والعلاقات الدولية وأثرها فى ذلك.

وكان بين الأساليب التى سلكها أصحاب هذا الاتجاه فى تمجيد الحضارة الغربية تهجين الحضارة الإسلامية، وتصوير الماضى كله على أنه تخلف وظلام وفساد وإفساد، وأن العودة إليه أو الدعوة إلى إحيائه بالإفادة منه هى ـ عندهم ـ عين التخلف والجهل، فإذا دعا داع إلى التمسك بالكتاب والسنة

كمصدرين للتشريع اتهموه بالتخلف، ووصفوه بالجهل، وإذا نادى منادٍ بوحدة المسلمين، كما اتحدت دول العالم تحت مسميات مختلفة اتهموه بالتعصب والطائفية، وإذا قرئ عليهم ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾، قالوا: إنها دعوة إلى الحياة الذاتية التى كان يعيشها إنسان الصحراء.

وكانت المرأة وعلاقتها بالرجل موضع اهتمام وبحث، ورددوا ما قاله المستشرقون الذين يقرأون القرآن بعين عوراء، فلا تبصر إلا ما يحلو لها بصره فقط، فأثاروا مشكلات لا أصل لها فى ثقافتنا الإسلامية وظهرت مصطلحات غربية ليس للمسلمين عهد بها «مثل تحرير المرأة»، «حقوق المرأة»، «مساواة المرأة بالرجل»، ومن يقرأ هذه المصطلحات يخيل إليه لأول وهلة أن المرأة فى الإسلام مسترقة، ضائعة حقوقها، يستلبها الرجل أموالها. وهذه كلها مشكلات وافدة علينا ليست وليدا شرعيًا لديننا ولا ثقافتنا، ولكنهم هكذا أرادوا شغل المثقفين عن مصير بلادهم والاشتغال عن عظائم الأمور التى تجرى فيها بالانشغال بالأمور التافهة التى يطول الجدل حولها، ويشتد الصراع فى بؤرتها، لتبقى النار مشتعلة بين المسلمين فلا يبصرون من مشكلاتهم إلا هذه الأمور الزائفة، أما المشكلات الحقيقة، التى تهتز لها الأوطان، وتنهض بها الأمم، فهم فى غيبوبة عنها؛ لأنه لا يراد لهم أن ينشغلوا بها، والقرآن والسنة تفيض نصوصها بحقوق كل من الرجل والمرأة قبل الآخر، وواجبات كل منهما نحو الآخر، بل كانت نصوص القرآن والسنة فى جانب المرأة أكثر من جانب الرجل، ويكفى فى ذلك وصايا الرسول ﷺ بالمرأة فى خطبة الوداع حين قال: «استوصوا بالنساء خيرًا»، وقال ﷺ: «ما أكرمهن إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم، ولا يجوز علميًا ولا منهجيًا حمل أخطاء المسلمين على الإسلام فكم من المبادئ الراقية شوهت معالمها على يد الأتباع عند التطبيق.

المشروع الإسلامى

تمهيد :

يختلف بالضرورة المنطلق الذى يصدر عنه الإسلاميون فى مفهوم التنوير وفى التاريخ له عن المنطلق العلمانى.

ذلك ان المفهوم للتنوير كما سبق توضيحه مفهوم غربى استشراقى فى وسائله ومقاصده، أما مفهوم التنوير فى المشروع الإسلامى فهو ينطلق من الركائز الاساسية لأى حركة تنويرية أو نهضوية كما أشرنا إلى ذلك فيمًا سبق.

فعلى المستوى الثقافى كان منطلقهم، العلم وسيلة وغاية، والعقل لغة وادراكًا.

وعلى المستوى الاجتماعى : كانت الحرية فريضة دينية وكان مبدأ المساوأة شعيرة من شعائر الإسلام

وعلى المستؤى السياسى : كان مبدأ العدل أساسًا لنظام الحكم ووسيلة لاداء الحقوق وقضاء الامانات، وكان نظام الشورى وسيلة ومسلكًا لاقرار مبدأ العدل بين الرعية.

وهذه المرتكزات الاسياسية يعتبرها الإسلام واجبات دينية، واسسًا اجتماعية، وفرائض سياسية، يتعلق بها استقرار الحكم، وحسن سياسة الأمة، واهمالها أو الاعتداء على واحد منها يحدث بالضرورة خللاً فى النظام العام للبنية الاجتماعية للامة.

ومن الجدير بالذكر ان مفهوم التنوير فى هذا المشروع الإسلامى يفتح الأبواب على مصراعيها للحوار والأخذ عن الآخر ايًا كانت ديانته وثقافته وحضارته، يأخذ عنه النافع والمفيد من كل فن وعلم، ويجعل ذلك فريضة

اسلامية وواجبات عليه. لان الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها كان احق بها وينفتح على الغرب لينهل من علمه ومعارفه ما يساعده على التقدم ويحقق له أهدافه وغاياته، وليس صحيحا ما يروجه العلمانيون ان الاتصال بالغرب أو الأخذ عنه أو الحوار معه امر محرم شرعا عند الإسلامين. أو هو مرفوض عندهم (ان هذا محض افتراء) ومن باب التلوث الثقافي الذى سمم الاجواء العقلية والفكرية في بلادنا.

ان التنوير ينبغى ان يكون اسلاميا فى أصوله ومتابعة، فى وسائله ومناهجه، فى اهدافه ومقاصده، وهذا المنهج التنويرى يفتح ابوابه للنافع والمفيد من كل امة شرقية كانت أو غربية كما سبق، هذا من ناحية مفهوم التنوير.

اما الامر الآخر الذى يذهب إليه الإسلاميون فهو رفض التأريخ للنهضة المصرية بالحملة الفرنسية، انهم يعترفون بدورها فى بعث الإحساس بالحاجة إلى المزيد والمزيد من العلم والمعاريف الغربية.

لكن لاينبغى ان نفهم ان أبناء مصر كانوا قبل هذه الحملة فى عماء وجهالة، حتى جاء نابليون فابصرهم بعد عمى، أو هداهم بعد جهالة. لا، فإن ذلك لم يكن هدفًا من أهداف حملة نابليون. حتى وان أقسم الاستشراق على ذلك، لم يأت نابليون ليوقظ مصر من سباتها، أو ليبعث فيها النهضة أو... أو ... كما يروج لذلك المستشرقون ويتابعهم فى ذلك بعض العلمانيين، من يصدق هذه الاكذوبه فقد فاته الوعى بالتاريخ وادراك احداثه، نعم كان للحملة الفرنسية اثارها الثقافية فى الكشف عن حجر رشيد وكان للمطبعة التى جلبها نابليون دورها، هذا امر لا ينبغى ان ينكر اثره، لكن ان يكون ذلك بداية للنهضة المصرية. فهذا امر ينبغى التحفظ فى قبوله. أو ان نابليون جاء لينهض بالشرق فهذا تزييف للتاريخ.

ان العالم الإسلامى قد أدرك مفكروه انهم فى حاجة إلى يقظة تخرجهم مما هم فيه من ركود، ولقد ظهرت بواكير هذه اليقظة فى وقت مبكر قبل الحملة الفرنسية، بل انهم يرون ان الحملة الفرنسية قد عملت على اجهاض هذه اليقظة ووأدها فى مهدها، خاصة ان الغرب كله كان ابان هذه الفترة متربصاً بالخلافة العثمانية، يعد العدة للإنقضاض عليها. والتاريخ والواقع ربما اكدا هذه الحقيقة.

فمن ناحية نجد ان بواكير النهضة قد بدت ملامحها بظهور المطبعة فى عاصمة الخلافة بالإستانة منذ عام ١٧٢٨م.

ومن جانب آخر وجدنا الثورات الاصلاحية قد انتشرت فى ارجاء العالم الإسلامى شرقًا وغربًا بهدف الاصلاح السياسى والإجتماعى والدينى والنهضة العلمية، والذى يقرأ تاريخ إبّان القرن السابع عشر ـ وهو بداية عصر النهضة الاوربية ـ سوف يتأكد أن بواكير النهضة قد بدأت فى الشرق فى هذه الفترة المبكرة، وكانت هذه البداية متزامة مع بداية النهضة الأوربية مع أتختلاف الوسائل والمناهج والمقاصد. وهذا امر لا بد ان يكون واضحًا وفى الحسبان،حتى لا تتوه معالم الأمور امام الشباب.

ففى الهند شرقًا ظهرت حركة أحمد شاه ولى الله سنة ١٧٠٢ ـ ١٧٦٢ ليعلن حربه على الاستعمار الانجليزى، كما ظهر بعده أحمد خان ١٨١٧ ـ ١٨٩٨ م وفى وسط الجزيرة العربية ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩١) لتصحيح عقائد الناس ويقضى على الجهل والخرفات.

كما ظهر فى افريقيا عثمان دان فوديو(١٧٥٤ ـ ١٨٩١)

وفى السودان ظهرت الثورة المهدية ووقفت فى وجه الاستعمار الانجليزى.

وفى ليبيا ظهرت الحركة السنوسية، وفى مطلع القرن العشرين كانت

دعوة افغانى ومحمد عبده فى مصر وابن باديس وعبد القادر الجزائرى فى شمال افريقيا والكواكبى فى الشام وكلها دعوات اصلاحية نهضوية تنويرية.

وينبغى ان نعيد قراءة التاريخ الحديث، لكن بعين عربية اسلامية كما سبق ان اشرنا وليس بعين المستشرقين الغربية، ينبغى ان نقرأ موقف الغرب من هذه الحركات الاصلاحية، كيف تأمر على وأد هذه الثورات وأن نتعرف على وسائله فى محاربتها.

لقد كانت القرون الثلاثة الاخيرة تمثل جدة الصراع الحضارى بين الشرق والغرب، وكان الغرب قد دخل عصر الصناعة، وقفز فى ذلك قفزات هائلة، فسخر كل وسائله للسطو على مقدارات العالم الإسلامى والقضاء على هذه الثوارات، وشاع بين دول اوروبا مصطلح "الخطر الإسلامى" وتعبيراً عما احسه الغرب من بواكير نهضة الشرق التى ينبغى ان يقضى عليها والا يسمح لها بان تمارس دورها فى حركة التاريخ

ان ظهور مصطلح **الخطر الاسلامى** فى الغرب امر له دلالته التاريخيه فى التربص بالشر وحضارتهم، واعداد العده لمجابهة هذا الخطر والقضاء عليه، اننا اذا استطعنا ان نتجرد من آثار قراءة المستشرقين لتاريخنا وقرأنا بعين العربى المسلم تاريخ المنطقة العربية فى بداية القرن السابع عشر - وهو تقريباً بداية عصر النهضة الأوربية - نجد ان ابناء المنطقة النابهين فى كل قطر قد خالفهم الاحساس بضرورة التغيير والبدء فى نهضة علمية تواكب ما بدأته اوربا وتسير معها جنباً إلى جنب.

فلقد احس النابهون من ابناء كل قطر عربى بنوع من الخلل فى ميسرة العلوم، وان هناك اهتماماً ملحوظاً بالعلوم النظرية أو التى تسمى بالعلوم الإنسانية على حساب العلوم العلمية، ولا بد من تدارك هذا الخلل ومن هنا

قامت مجموعة من العلماء يعملون على ترشيد مسيرة العلم، وإيقاظ الهمم نحو النهوض بخطى وئيده.

وإذا تأملنا مقاصد هؤلاء الاعلام واهدافهم نجد أنها لم تكن قاصرة على الاحياء اللغوى والأدبى فقط، كما لم تكن قاصرة على الاحياء الدينى والعودة الصحيحة إلى مصادره الأولى الصافية من كل تأويل، بل بالإضافة إلى ذلك كله كانت مقاصدهم تتجه نحو النهضة العلمية بالمعنى المعروف، فإن شخصية مثل الجبرتى الكبير والد الجبرتى المؤرخ بالإضافة إلى كونه فقيها حنفيا عالمًا باللغة والكلام، كان أيضًا امامًا فى العلوم الأخرى، فبعد أن تصدر للإفتاء ولى وجهه نحو تحصيل هذه العلوم الكونية ونقطع لها من سنة ١٧٣١ م فجمع كتبها وقضى فى تحصيلها عشر سنوات (١١٤٤ - ١١٥٥ هـ) حتى ملك ناصيتها وبرز فيها، فى الهندسة، والكيماء، والفلك، والصنائع الحضارية، حتى النجارة والحدادة والسباكة والخراطة والسمكرة والتجليد والنقش والموازين، واصبح بيته زاخراً بأدوات الصناعة ومقصداً لكل طلاب هذه الفنون، حتى انه علم خدمه فى بيته كل هذه الصناعات، يقول الجبرتى المؤرخ عن أبيه : [١] وحضر إليه طلاب من الافرنج وقرأوا عليه علم الهندسة وذلك فى سنة ١١٥٩ هـ ١٧٤٦ م وأهدوا إليه من صنائعهم اشياء نفيسة، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت، واخرجوه من القوة إلى الفعل، واستخرجوا الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه.

ويقول الشيخ محمود شاكر معلقًا على هذه الفقرة من تاريخ الجبرتى : ولا شك ان هؤلاء الافرنج هم المستشرقون الذين الذين سبقوا حملة نابليون على مصر، وكانوا عيونه عليها ومستشاريه بها، وكان هؤلاء المستشرقون

---

(١) راجع رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا : محمود شاكر ، ط دار الهلال

هم عيون الاستعمار وجواسيسه، والمخططون، له لكى يجهز على هذه الحركات فى مهدها حتى لا تنهض. لأن الأستعمار مازال ماثلاً فى ذهنه سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح، الذى فتح ابواب اوروبا المسيحية امام المد الإسلامى، وهؤلاء يعملون جاهدين على تقليم اظافر الخلافة وتقطيع اوصالها فى الاطراف وفى القلب على سواء

ولذلك فقد تآمرت اوروبا كلها شرقًا وغربًا على وأد هذه الحركات قبل ان تنهض، وتفتيت وحدة الخلافة العثما نية، وعقدوا من اجل ذلك المؤتمرات والنّدوات، ووضعوا مائة مشروع اوروبى للقضاء على الخلافة العثمانية ووأد هذه الحركات النهوضية، لقد لفت البيان العربى شكيب ارسلان انظار المسلمين إلى هذه المؤتمرات الاوروبية فى تعليقاته على كتاب "حاضر العالم الإسلامى" لمؤلفه الامريكى لوثروب استوادرد، فكتب بحثًا مستقلاً عن هذه المؤتمرات بعنوان "مائة مشروع لتقسيم تركيا الإسلامية" ولعل تاريخ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان هو الوعاء الزمنى لتنفيذ هذه المؤتمرات بحيث جاء القرن العشرون والعالم الإسلامى كله واقع فى قضية الاستعمار شرقًا وغربًا، ولم يمض الربع الأول من هذا القرن الا وقد شهد سقوط الخلافة رسميًا سنة ١٩٢٤م تنفيذاً لهذه المخططات.

ومن الانصاف ان نقارن بين المنطق العربية وأوروبا فى بداية عصر النهضة لنجد التقارب واضحًا بين المنطقتين، والسبق الأروربى كان من السهل جداً اللحاق به، كما يقول الاستاذ محمود شاكر لولا سياسة اوروبا تجاه هذه المنطقة، لولا السطو المسلح على خبراتها ونهب كنوزها، وسرقة خزائن الكتب والعلم فيها، والفارق بين النهضتين يومئذ هو ان يقظة العالم الإسلامى كانت هادئة سلمية الطوية انبعاثها ذاتى، مقاصدها نبيلة، اهدافها اخلاقية، هو تحقيق سعادة البشرية فى حدود تعاليم الإسلام، فكانت طبيعية فى مسيرتها غير متوجسة ولا متربصة باحد من اهل

الارض، اما يقظة الغرب فكانت اشبه بالقفز الأعرج الخائف، متفجرة بحقد دفين من آثار فتح أوروبا أمام الإسلام على يد محمد الفاتح. مقاصدهم الفتك والسطو على اطراف هذه الخلافة واستئصالها، والضرب فى القلب والمقتل فى دار الإسلام، بالمدفع والقنبلة ان تيسر، وبالدهاء والمكر والخداع ان كان ذلك مطلوبًا، واثبت التاريخ وصدَّق الواقع ما نقول به، كان الثأر والفتك مقصداً وغاية، لذلك كانت بدايتهم النهوضية تركز على تضييع الاسلحة الفتاكة التى تحقق لهم غايتهم من اليقظة التى بدأوها.

نعم لقد كانت يقظة العلماء فى الشرق بشيراً بنهضة حقيقة كاملة، وإحياء صحيح لماض تليد، وانطلاقًا صادقًا نحو مستقبل مأمول، لولا ما كان من موقف الغرب من العالم الإسلامى، لقد اجتمعت كلمة اوروبا رغم ما بينها من خلافات ـ على تمزيق أطراف العالم الإسلامى واستنزاف خبراته، وبدأوا هذه المؤامرة بالهند البعيدة عن مركز الخلافة، وكانت شركة الهند البريطانية طليعة هذه المأساة، ثم بدأ الصراع بين فرنسا وانجلترا على الاستيلاء على خيرات العالم العربى، وتفصيل القول فى ذلك له مكان آخر. لكن هنا امور احب ان اضعها امام القارئ الكريم.

إن كنوز العرب والمسلمين العلمية والادبية والتاريخية قد سطا عليها المستعمر، وكان ذلك من أول اهدافه ومن اهم مقاصده ـ والذى يزور المتحف البريطانى ومكتبات فرنسا ويحصى ما فيها من الآثار العلمية الإسلامية لا بد له ان يتساءل. لماذا ركزت الحملة الفرنسية فى مصر على سلب هذه الكنوز ونقلها إلى بلادهم؟

لماذا دأب نابليون منذ دخوله القاهرة غازيًا على قتل خمسة أو ستة من خيرة علماء مصر كل يوم وتعليق رؤوسهم على الرماح والطواف بها فى شوارع القاهرة؟

لماذا حرص على اقتحام الازهر بخيوله بالدات مع ان هناك مساجد تهفوا إليها قلوب العوام من الناس كمسجد الحسين والسيدة زينب وغيرها؟

ومما يلفت النظر ويثير العجب ما جاء فى شروط الصلح للجلاء عن القاهرة، فقد نصت الشروط التى وضعها نابليون على ما يلى :

" أن الفرنسين" يستصحبون معهم ما يحتاجونه من اوراقهم وكتبهم التى اشتروها من مصر، وما يلفت النظر أيضا ان بابليون بعد ان دخل مصر اصدر قرارات من الحكومة فى ١٦ / ٥ / ١٧٩٨م يطلب إلى وزير الداخلية ان يضع تحت تصرف نابليون بونابرت المهندسين والفنانين وغيرهم من أعضاء الهيئات التى تخضع لا شراف وزارة الداخلية وكذلك الاشياء التى يريدها لحملته.

والجبرتى المؤرخ يسجل لنا فى تأريخه لهذه الحملة وثائق تحتاج إلى اعادة قراءتها بعين مصرية لا بعين فرنسية، حتى ينصف المصريون انفسهم وينصفوا التاريخ معهم.

لقد استطاعت الحملة ان تجمع علماء مصر فى كل فروع المعرفة وتجندهم اجباريًا تحت امرة الحملة الفرنسية، ينهلون من معارفهم ويقفون على علومهم، وخصصوا لهم مكانًا محددًا اشبه بالمعسكر الاجبارى الذى يجتمع فيه الجنود تحت امرة قائدهم، ويقول الجبرتى " وافردوا للمديرين والفلكيين واهل المعرفة والعلوم والرياضة كالهندسية والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين :حارة الناصرية " ليجتمعوا فيها ويكونوا تحت طلب الحملة وقوادها يستشيرونهم ويتعلمون منهم واتخذوا دار حسن كاشف جركسى مقراً لهم وقد وصف الجبرتى ما وجده عندهم كتب الإسلامية الكثيرة التى شاهدها مترجمة بلغتهم، يقول : رأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ويعبرون عنه بقولهم

شفاء شريف، كما وجد عندهم بردة البوصيرى وترجموها وغير ذلك من الفنون اللغوية والادبية (١)

والغريب حقًا ان بعض الباحثين يقرأ ذلك عند الجبرتى ويحاول ان يفسر ذلك بأن الحملة الفرنسية قد احضرت هذه الكتب معها من باريس لكى تنشر ما فيها من علم تنويرى بين ابناء مصر ولذلك جمعوا لها العلماء والادباء. ار أيت اكثر من هذا مثيراً للعجب. وهل ابناء مصر كانوا يجهلون هذه الكتب حتى يتعلموها من الحملة الفرنسية؟ اليس الأكثر قبولاً فى العقل أن يقال العكس، ان هذه الكتب التى جمعوها هى الكتب التى سرقوها من مكتبة الجبرتى الكبير وكلها كتب علمية من الآثار والتراث المصرى القديم، والمثير للدهشة اصرار الحملة الفرنسية الشديد على تجريد القاهرة من كل مصادر المعرفة والعلم. أليس ذلك امراً مثيراً للعجب حقًا؟ إن هناك عيناً أخرى تقرأ تاريخ العلاقة بين الاستعمار والمسلمين، وهى تختلف فى قراءتها للتاريخ وتفسيرها لاحداثه عن تلك العين الاستشراقية التى قرأت تاريخنا وفسرته تفسيراً هوائيًا لتجعل الشرق مواطنًا طبيعيا للتأخر، ولتجعل الحملة الفرنسية منطلقًا لحضارة مصر الحديثة. ومن المؤسف ان يتابعها فى هذا التفسير تلاميذ الاستشراق فى العالم العربى(٢)

ان هناك قرائتين لتاريخ العالم العربى المعاصر:

قراءة علمانية غربية استشراقية اووثها الاستشراق لتلاميذه من بعده. وهذه القراءة يمثلها رينان الفيلسوف الفرنسى، وورثها عنه الكثير من العلمانين فى بلادنا وتتلخص هذه القراءة فى أن أسباب تأخر المسلمين هو الإسلام. ما يعتنقه المسلمون من قيم إسلامية، وما يدنيون به من عقائد

---

(١) عجائب الآثار ٣٥١٣ ط مصر ٢، ١٣ هـ، راجع رسالة فى الطريق لما ثقافتنا كتاب محمد عبده ص١

(٢) راجع رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا. محمود شاكر.

عيبية. ولقد جسد رينان رأى اصحاب هذه القراءة الاستشراقية فى محاضرة ألقاها بجامعة السوربون فى ٢٩ مارس سنة ١٨٨٣م وتحدث فيها عن علاقة الإسلام بالعلم والروح العلمية (١) وكانت هذه المحاضرة مملوءة بالاتهامات بالنسبة للإسلام كدين وعقيدة وبالنسبة للبلاد التى تدين به وان كل ما فعله الإسلام بأهله كان هو التأخر الحضارى ومحاربة العلم، وهذه القراءة قد انتقلت كما قلنا - إلى كثير من المشتغلين بالثقافة، واخذوا يدندنون حولها ويطالبون ليلاً ونهارا وسرا وجهارا، بالتخلص من الإسلام لكى تنهض كما نهضت اوروبا.

اما القراءة الثانية :

فيرى أصحابها أن العالم الإسلامى كان يسير فى اتجاه التطور الطبيعى نحو منطق العصر، لغة وحضارة، وثقافة، وعلما، كان يسير بخطى هادئة غير متشنجة، فى كل فروع المعرفة الانسانية، وأثمرت جهوده أبنائه وأفاد من جهودهم معظم بلاد العالم شرقًا وغربًا، ومنذ فتح القسطنطينية ودخول الإسلام إلى قلب أوروبا أحس الغرب بالفزع الأكبر من هول تلك الفاجعة، وبدا الحديث فى أرجاء أوروبا عما يسمونه "**الخطر الإسلامى**" وبدأ يعد العدة للإجهاز على قلب العالم الإسلامى واطرافة، وكان جل اهتمامه العلمى موجهًا لتصنيع السلاح وتقنيته بهدف القضاء على العالم الإسلامى ومحو آثار هذا الخطر. ولذلك كان تقدم الغرب مرتبطا بتصنيع آلات الدمار والفتك اكثر منه بتصنيع الحضارة واساليب التحضر، وبدأ المهتمون بإصلاح حال المسلمين يشغلون انفسهم بالبحث حول هذه القضية. علاقة الغرب بالشرق، واسباب تأخر المسلمين وتقدم غيرهم وأخذوا يتسألون عن هذه الاسباب. هل حقا سبب تأخر المسلمين هو تمسك

---

(١) راجع الإسلام المعاصر د. على مراد ترجمة محمود على مراد. ص ٦١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب. والمؤلف أستاذ بالسروبون

المسلمين بدينهم . ؟ هل هى اسباب ذاتية فى طبيعة الدين الإسلامى . أو فى طبيعة المسلم . . . ؟

وبدأ جمهور المصلحين فى العالم الإسلامى يدلى بدلوه فى البحث عن اسباب تأخر المسلمين. فألف شكيب ارسلان كتابه " لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم. ونحا فيه منحى الرد على مزاعم المستشرقين من جانب، وتحليل بعض مظاهر الخطأ فى تصوير المسلمين للإسلام من جانب آخر، وألف الكواكبى كتابه "أم القرى" وطبائع الاستبداد.

كما شغل ابن باديس نفسه فى الجزائر بتحليل نفس الظاهرة، وفى مصر كان جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده مهتمين بالرد على دعاوى المستشرقين خاصة رينان، والعمل على ايقاظ همم المسلمين واحياء الفهم الصحيح للإسلام، فوضع جمال الدين رسالته. فى الرد على الدهريين وألف محمد عبده رسالته فى "التوحيد" بالإضافة إلى كثير من المقالات التى نشرها فى "العروة الوثقى" وما زال السؤال قائمًا حتى الآن، لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ....؟

لقد احتفظ الإسلام حتى القرن السادس عشر بالتفوق والتقدم فى كثير من العلوم المختلفة، وظل الإسلام خلال هذه الفترة محتفظًا بقوته العسكرية، فقد كان البحر الأبيض المتوسط يطلقون عليه فى الغرب البحيرة الإسلامية. حيث كان يمتد النفوذ الإسلامى من البحر الأسود شمالاً حت سواحل افريقيا جنوبًا وبوغاز جبل طارق غربًا، والقراءة الإسلامية لتاريخ هذه الفترة يتقى كثيراً من التبعة والمسئولية فى تدهور المستوى الحضارى للعالم الإسلامى على الغرب وعلاقته العدائية والحاقدة على الشرق. ومنذ فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وغزو المجر سنة ١٥٢٦ ، والهجوم الأخير نحو فيينا عاصمة النمسا فى صيف عام ١٦٨٣ انتهت

مرحلة المد الإسلامى لتبدأ مرحلة الجذر والتراجع بفعل عوامل كثيرة، لكن كان اهمها بالقطع هو اتحاد دول أوروبا كاملة لمواجهة هذا الخطر الإسلامى بشتى الاساليب وانطلقت الكشوف العلمية نحو خدمة تسليح الجيوش للسيطرة على الشرق لقد بدأت القراءة الإسلامية لتاريخ المنطقة من هذه المنطلقات :

١ ـ إحساس أوروبا بخطر الإسلام .

٢ ـ مواجهة هذا الخطر بما تملك من وسائل عسكرية ـ سياسية ـ اقتصادية .

٣ ـ العمل على تفتيت القوة الإسلامية المتمثلة فى الخلافة العثمانية وتقطيع اطرافها ان بالكيد والمكر ، وإن بالإغراء والوعود ، وان بالدبابة والمدفع .

٤ ـ ولم تهمل هذه القرءة ما آلت إليه أحوال المسلمين من ضعف وهو ان كان سببه من وجهة نظرهم حالة الترهل فى جسم الامة الإسلامية وغياب الاحساس بما يبيته الغرب له .

٥ ـ اضف إلى ذلك اهتمام المسلمين بالعلوم الشرعية واهمالهم للعلوم الطبيعية التى يتعاملون بها مع الكون (علوم الطبيعية ـ الكيمياء ـ الرياضة ـ الهندسة) وهى التى قفز بها الغرب قفزات هائلة اذهلت الشرق فى أول اتصاله بالغرب مما جعل نوعًا من الاحساس باليأس يتسرب إلى نفوس العامة ، حتى سادت روح التواكل أو كادت . وهذا ما جعل المصلحين يركزون جهودهم على ايقاظ الهمم لتدارك ما فات ، بمنطق العلم والعقل فى ثقافة الامة ، والحرية والمساوة فى الحياة الإجتماعية ، والعدل والشورى فى نظام الحكم ، كل هذا من منظور الإسلام وتحت حراسته ، ليكون الاعتقاد الصحيح محركًا للامة بتطبيق هذه الركائز ، والمحافظة عليها باعتباها ركائز عقائدية أو لا ، ومناهج اصلاحية ثانيًا .

مدرسة الإصلاح فى مصر

أ ـ الأفغانى :

وجه المصلحون فى مصر اهتمامهم نحو الرد على افتراءات المستشرقين على الإسلام وازالة الشبهات التى يثيرونها حوله. وحاولوا ان يوضحوا للعامة والخاصة ان هجمة المستشرقين علىى الإسلام انما هى جزء من مخطط استعمارى كبير، يقصد به تفريغ المسلم أولا من الولاء لعقيدته وتشكيكه فيها بدعوى إنها سبب فى تأخر الشرق، لكى يصبح العقل والقلب، صالحًا لتقبل ما يلقى عليه من افكار يروج لها الاستشراق فى العالم، وليتقبل عنهم مزاعمهم وآراءهم حول الإسلام وأنه من أسباب تأخر المسلمين، وعن الغرب وسبب تقدمه. وأهمها أن الغرب لم يتقدم إلا بعد ان تخلص من الاديان. كان هذا أخطر ما فى هذه الحملة الاستشراقية فى مطلع هذا القرن.

فبدأ جمال الدين الأفغانى بكتابه " الرد على الدهرين وكتب محمد عبده عن « الإسلام والمدنية »، وحاول الأفغانى فى منهجه ان يحلل واقع المجتمعات المتدينة وما تتمسك به من قيم ومبادئ، وأثر ذلك فى النهوض بالمجتمع، وإن يقارن بين واقع هذه المجتمعات المتدينة والمجتمعات الأخرى اللادينية، وما يحكمها من غرائز البقاء فيها للأقوياء، شأن الحيوان فى الغابات.

ان المجتمع المتدين يتميز بسمات اخلاقية على مستوى الفرد والجماعة لا توجد فى المجتمع اللادينى، ذلك ان الإيمان بالاديان يجعل صاحبها ذا هدف سام ينشده، غاية نبيلة اخلاقية يسعى إليها، والتزام بها، من اعتقاده باللّه واليوم الآخر. وركز فى هذا الجانب على ثلاثة امور اكسبها الدين لا بنائه بينما افتقدها الملحدون عمومًا.

أولا : ان الدين يجعل المتدين سيد عالمه، انه ملك يمشى على الأرض وهو

اشرف خلق اللّه فى ملك الله ، فلقد كرمه اللّه فى كتابه الكريم بالخبر الصادق فى قوله ... ولقد كرمنا بنى آدم .. واستخلفه الله فى هذا الكون لإعماره وتسخيره لمصالحه ، والإنسان المتدين هو الوحيد الذى يشعر بهذا التكريم الالهى ، والإنسان المتدين هو الوحيد الذى ينبغى ان يتصرف فى الكون من هذا المنطلق ، انه سيد الكون . أن الكون مسخر لخدمته ، انه مسئول عن اعمار الكون واحيائه ، ويدفعه الاعتقاد الدينى إلى الشعور بالتقصير والتعرض للحساب أن هو أهمل الأخذ بهذه الاسباب أو قصر فيها .

ثانيًا : إحساس المتدين بأن امته اشرف الأمم واعراقها ، واكثرها حرصًا على اعمار الكون والإفاده منه ، وإن غيره فى غى وضلال ، ومن واقع احساسه بهذين الأمرين عليه ان يتحمل مسئولية كبرى نحو غيره من الأمم والأفراد ، إنها مسئولية الدعوة إلى دينه والهداية إليه ، إنها مسئولية اعمار الكون والافادة به .

ثالثًا : ايمان المتدين بأن هذه الحياة ليست غاية فى ذاتها وانما هى طريق يجتازه الانسان إلى العالم الآخر ، إنه ورد إلى هذه الحياة لتحصل الكمالات الاخلاقية الدينية التى تؤهله للعروج إلى عالم افضل واوسع من هذا العالم ، إنه أذن كالمقدمة التى يجب ان يحسن المرء ترتيب مفرداتها ويحسن توظيفها ليحصل على النتائج المطلوبة ، إن إيمان الفرد والمجتمع بهذه الأمور الثلاثة تجعله يتأبى على الدنيا من الأفعال والرذائل ، ويترفع عن انتهاك محارم الاخلاق أو التدنى فى السلوك ، فيصير المجتمع فى نهايته مدينة فاضلة وتلك نهاية السعادة ، هذا الاعتقاد هو ، الزاجر الوحيد للانسان عن افتراس حقوق الآخرين ، واشد مانع له عن ممارسة الرذائل . وإلا فحدثنى بربك ما أكثرها القوانين وما اشد انواع الرقبات وتنوعها على الصوص ومقترفى الرذائل ، مع ذلك فما اكثر الجرائم واشدها فتكًا بالإنسان ، وإن شئت

فارم بنظرك إلى قوم لا يعتقدون فى أى دين ويرون ان الانسان حيوان كسائر الحيوانات، أو متطور عن نوع منهم كما يرى الملحدون، ثم انظر ماذا يفعلون ببنى الإنسان، إن هذا الإعتقاد كما يرى الأفغانى هو أبلغ قائد إلى طريق العلا ومقامات الشرف، فكيف يقول المستشرقونإن تمسك الشرق بالإسلام هو سبب تأخرهم، أن اعتقاد المتدين فى ربه وفى اليوم الآخر يورثه خصالا هى عمدة السلوك الحضارى وأسسه وأهم هذه الخصال :

١ ـ فضيلة الحياء

هى التى تتولد فى النفس عن مراقبة الانسان لربه، الذى يعتقد بمعينه فى كل وقت، حتى وان غاب عنه الناس، فهو رقيبه فى غيبة الآخرين، وصفة الحياء يلازمها شرف النفس، وهى عمدة السلوك فى الترفع عن كل رذيلة. وكل مجتمع فقد صفة الحياء فقد فاته من اساسيات السلوك الحضارى الكثير والكثير، لأن هذا مما تدور عليه معاملات الناس وعلاقتهم بالآخرين.

٢ ـ الأمانة :

وهى ركيزة التعامل بين الناس وروح المعاملة والمعارضة، فإن ضاعت الامانة فى مجتمع ما فقد فسدت روح المعاملات واختل نظام المعيشة، إذا تطرق هذا الخلل إلى المسئولين بأن ضاعت الامانة بينهم، فقد اختل الهيكل الاساسى للحكومة التى تدير شئون الدولة وهذا أول باب الخلل الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، وبداية انيهار الامم وسقوط نظامها فى اعين الرعية، ولا بد ان يئول امرها إلى الانقراض والفناء، لأن سقوط هذه الخصال بين المتحاكمين فيه معانده للعدل ومعارضة للحقوق، وهما قطب الرحى فى بناء أو انهيار الامم وسقوط الحكومات.

٣ ـ الصدق :

الذى هو صنو الامانة ووليد الحياء، وهذه الامور الثلاثة لا غنى عنها

لمجتمع اذا ما اراد ان ينهض. كلها محروسة فى الإسلام بالاوامر الإليهة والاحاديث النبوية، ومرعية فى مجتمع المسلمين بالاعتقاد القوى الجازم

إن الأفغانى هنا يبرئ الإسلام من تهمة المستشرقين له بأنه سبب فى تأخر المسلمين، ليعود باللوم على المسلمين انفسهم، وبما تفشى بينهم من خرافات وأباطيل وبعد عن الدين.

لقد تحدث الأفغانى عن الإسلام فقال : انه فى مقدمة الاديان السماوية التى نزلت لاسعاد لبشر، لأنه يفضل الأديان الأخرى فى كثير من الأمور. أنه يصقل العقل بصقال التوحيد، يطهر الاعتقاد من رجس الاوثان بشرية كانت أو غيرها كما يعتقد الآخرون، إن الإسلام محى كلية جرثومية التعصب والتفرقة بين الأجناس، لأن قاعدته الاساسية فى المفاضلة " إن اكرمكم عند اللّه اتقاكم " ثم ان قاعدته فى الأعتقاد هو الأقناع والبرهان وليس التبعية والتقليد، ولذلك فإن دعرة الأفغانى لاصلاحية وان بدت فى ظاهرها دعوة سياسية، الا ان مضمونها وجوهرها الاصلاح الدينى الذى لخصه فى عبارته المحددة" ... ارجو ان يكون سلطان جميعهم ـ جميع المسلمين ـ القرآن، ووجهة وحدتهم الدين "، ان عله تأخر المسلمين عنده ترجع إلى التساهل فى تطبيق تعاليم الإسلام، اجتماعيًا، علمًا، وأخلاقيًا، فإن الأصول الدينية الحقة المبرأة من الأبتداع والأخلاقات تنشئ الأمم، وتقيم الحضارات، وللأسف الشديد، فإن المسلمين قد اكتفوا من الإسلام باسمه ورسمه، دون مضمونه وروحه، إن القرآن حى لا يموت، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود، إن الأفغانى ينادى فى العالم الإسلامى هاكم «كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه، وحكموه فى أفعالكم وأحوالكم وطباعكم، وما الله بغافل عما تعملون».

إنه يصحح للعامة والخاصة فهمهم الخاطئ للإسلام، واعتقادهم فيه، حين يقول: «إن حركتنا الدينية بالدعوة إلى القرآن ـ كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ فى أذهان وعقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد

الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الصحيح، مثل فهمهم نصوص القضاء والقدر على معنى أنهم لا يتحركون إلى طلب المعالى والمحامد، ويركنوا إلى الدعة والخمول... إنه لابد من بعث القرآن ليحى هذه النفوس، وليصحح هذه العقائد، فلقد سعد بالإسلام سلفنا وسادوا، فلماذا نشقى به ونستعبد؟

إنه ينعى على المسلمين تخلفهم، ودينهم يدعوا إلى التقدم.

إنه ينعى على المسلمين تفرقهم، ودينهم يدعوا إلى الوحدة.

إنه ينعى على المسلمين جهلهم بعلوم الكون، ودينهم يدعوا إلى العلم.

إنه ينعى على حكام المسلمين الظلم والاستبداد، ودينهم يدعوا إلى العدل.

إنه يدعو العلماء إلى تصحيح عقائد الناس فى دين الله ليصير القرآن حيًا متحركًا لا ساكنًا فى النفوس، يتلى للتبرك، ويكتب للتعاويذ فقط، ولقد أكد رشيد رضا نفس المعنى.

فكتب يقول: «لقد جفت الأقلام وخفقت الأصوات من كثرة ما كتبنا وخطينا فى موضوع شقاء المسلمين بدينهم الذى سعد به أسلافهم، وبينا أن علة الشفاء فى إبداعهم فيه لا فى اتباعهم له وفى لبسه كما يلبس الفرو مقلوبًا(١).

لقد كان الإسلام والتدين الحى ركيزة المنهج الإصلاحى لدى كل من الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وابن باديس والكواكبى وحسن البنا، بل إن من أسباب تأخر المسلمين عند هؤلاء جميعًا هو عدم الفهم الصحيح للإسلام وروحه الحية الوثابة، وليس كما قال: "رينان" وتبعه فى ذلك كثير ممن تأثروا به.

---

(١) (المنار جـ٣ صـ ٢٤٤) الإسلام المعاصر صـ ٦٧.

ولقد جسد هؤلاء المصلحون علة تأخر المسلمين فى أمور محددة حاول كل منهم أن يعالجها بطريقته الخاصة. وأهم هذه الأسباب:

١ ـ التخلى تدريجيًا عن روح الإسلام ونقص أو انعدام الإحساس كلية بروح الإسلام، والاكتفاء منه بمظهره وشكله دون أن يعيشوا روحه ومضمونه.

٢ ـ سوء فهم المسلمين لكثير من نصوص الإسلام، خاصة المتعلقة منها بموضوع التوكل والقضاء والقدر، مما ترتب على ذلك مواقف سلبية قاتلة تجاه كثير من القضايا الكبرى فى تاريخ المسلمين وحاضرهم.

٣ ـ عدم الإقبال على دراسة العلوم الطبيعية وعدم الإفادة منها بنفس الهمة التى يقبلون بها على العلوم الشرعية.

٤ ـ الرفض المطلق للغرب، ومحاولة قطع العلاقات معه بسبب موقف الغرب المعادى للإسلام والمسلمين، وخاصة فى عصر الاستعمار، وترتب على هذا الموقف النظر إلى علوم الغرب بحساسية وعداء، ولم يستطع كثير من المفكرين أن يفرق بين العلم فى ذاته وكونه مطلبًا شرعيًا، وأصحاب هذا العلم حتى وإن كانوا أعداءنا.

٥ ـ الاستبداد السياسى لأنظمة الحكم فى العالم الإسلامى، هذا الذى قتل فى الشعوب نخوة الرجولة وأفقد الكثير منهم الإحساس بهموم الوطن والتفكير فيها، وتحويل البلاد إلى قطعان من الأتباع لا يملكون من أمورهم إلا قولهم للسادة سمعنا وأطعنا.

٦ ـ التفرق الذى نجح الاستعمار فى زرع أسبابه بين صفوف الأمة، فظهرت الخلافات المذهبية والعرقية والقومية، وصار كل حزب بما لديهم فرحون، وانشغل المسلمون بهذه الخلافات التافهة وتركوا مصائر بلادهم ومستقبل حياتهم يتحكم فيها غيرهم، ويملى عليهم

الاستعمار ما يشاء فصاروا كما قال الشاعر :

كم صرفتنا يد كنا نصرفها ∴ وبات يملكنا شعب ملكناه

وهذه الأسباب تختلف قوتها شدة وضعفًا من وطن إلى وطن آخر ، لكنها في مجموعها فرضت نفسها على أذهان المصلحين وشغلتهم .

كيف نقضي على أسباب الفرقة بين المسلمين ؟

كيف نوحد صفوف الأمة ؟

كيف ندخل العصر من أوسع أبوابه ؟

كيف تعرف الشعوب بحقوقها لدى حكامها ... ؟ كيف ... ؟ كيف ؟ وما أكثرها في هذا الوقت .

لقد نادى الكواكبي في بلاده بالشام بالدستور كنظام لتحديد علاقة الحاكم بالمحكوم ، ووضع نظام عام للدولة ، ونادى الأفغاني ومحمد عبده بالجامعة الإسلامية لتحل محل الخلافة العثمانية ، وردد نفس النداء ابن باديس في الجزائر ، لقد كانت هذه القضايا هي الشغل الشاغل للمصلحين .

نعم لقد كان هؤلاء المصلحون جميعًا على قلب رجل واحد في أن أسباب تأخر المسلمين متعددة ومتنوعة ومختلفة من قطر إلى قطر ، إلا أن مفتاح الإصلاح لكل هذه الأسباب يكمن في الإصلاح الديني وإحيائه في القلوب أولا .

فإن صحة الاعتقاد تفرض على المسلمين طلب العلم الصحيح والأخذ بمناهجه ، وصحة الاعتقاد تطلب من المؤمن محاربة الجهل والتخلف والخرافات .

وصحة الاعتقاد تطلب منهم أن يعطوا الحاكم حقه من السمع والطاعة في غير معصية الله ، ويطالبوا بحقوقهم من العدل والشورى وأداء الحقوق والأمانات ، ولذلك كانت قاعدتهم الأساسية التي ركز كل منهم على البدء

منها قوله تعالى: ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾، آمن بهذه القاعدة الأفغانى ورددها محمد عبده من بعده، وأخذ بها الكواكبى، وابن باديس، وما زلنا نقولها اليوم، الإصلاح ينبغى أن يبدأ من القواعد أولاً فهى البداية الصحيحة لكل حركة إصلاحية. قد يطول عمرها ويمتد إلى جيل أو جيلين. لكن ذلك ليس شيئًا مذكوراً فى حركة التاريخ، نعم قد يطول عمرها إلى أن تأتى ثمرتها، لكنها إلى الخلود تسير، إن إصلاح التدين هو مفتاح طبيعى لكل حركة إصلاحية؛ لأن به إصلاح النفوس وهى مناط كل إصلاح، هكذا كان الأفغانى، وتلك كانت قضيته.

ب ـ محمد عبده:

ويسير فى نفس الاتجاه الإمام محمد عبده، فأخذ بنفس المنهج الذى سلكه أستاذه الأفغانى فى تفسيره لأسباب تأخر المسلمين وتقدم غيرهم، لكنه يرى أن أهم أسباب تأخر المسلمين يرجع إلى التقليد وترك الاجتهاد، يرجع إلى ما أصاب الإنسان المسلم من جمود على تقليد الآراء دون فحص لمضمونها، وهل هو صحيح عقلاً ونقلاً أم لا. لقد كان التقليد الأعمى للمتقدمين دينيا وطبعا مألوفًا لدى المشتغلين بالعلوم الدينية، دون أن يرجعوا بأنفسهم إلى الكتاب والسنة ليروا ما فيهما من علاج للمشكلات المطروحة، كان الواحد منهم يكتفى فى ذلك بما قاله شيخه، أو ما قرأه فى متن من المتون، أو حاشية من الحواشى، لذلك كان أول ما فكر فيه محمد عبده أن يعمل جاهداً على تحرير العقول من أسر التقليد للآراء، وفهم الدين فهمًا صحيحًا من المصدرين الأساسيين الكتاب والسنة، كما كان على ذلك سلف الأمة قبل ظهور الخلافات المذهبية والفرق الكلامية، لقد نادى محمد عبده، كما نادى بذلك من قبل كل من الأفغانى وابن تيمية بضرورة العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله لكسب المعارف الدينية، باعتبار أن هذين المصدرين هما النبع الصافى للمعارف الدينية التى يتآخى ويتعاون فى اكتسابها العقل مع النقل، واعتبار هذه المعارف ضمن موازين العقل باعتبار أن العقل، ربيب لنقل ووزيره ومعاونه.

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف الإصلاحى كانت ثورته على مناهج الأزهر، ودعوته لإصلاح هذه المناهج، بحيث تشتمل ضمن خطتها على علوم الكون (كالطبيعة، والكيمياء، والرياضة، والفلك، والطب)، باعتبار أن ذلك مطلب شرعى يعيش به المسلم شئون عصره ولا يتخلف عن عالمه. ووضع لذلك برنامجًا إصلاحيًا متكاملاً مزج فيه بين علوم الدين وعلوم الدنيا، باعتبار أن تحصيل النوعين مطلب شرعى ينبغى الاهتمام بهما معًا.

وطالب فى هذا البرنامج بإصلاح اللغة العربية وأساليبها سواء كان ذلك فى المخاطبات أو المراسلات أو دواوين الحكومة.

أما الأمر المهم الذى شغل حيزًا كبيرًا من حياة الإمام محمد عبده، فهو اهتمامه بالإصلاح السياسى للدولة، وعلاقة الحاكم بالأمة وإدارة شئونها، لقد طالب محمد عبده بتحسين علاقة الخديوى بالشعب، وكما أن للحاكم حقوقًا على شعبه، فكذلك للشعوب حقوق على حكامها، ولا ينبغى أن يطالب الحكام بحقوقهم من الأمة ويذيقوا الشعوب الويل والثبور والإذلال وينسوا تمامًا حقوق الشعب عليهم. يقول محمد عبده: وهناك أمر آخر كنت من دعاته، والناس جميعًا فى عمى عنه، ولكنه الركن الركين تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة، نعم كنت، ممن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها، وهى لم يخطر لها هذا الخاطر على البال... دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم، وإن وجبت طاعته فهو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وإنه لا يرده عن خطأه ولا يقف طغيان شهوته ألا تصح الأمة له بالقول والفعل، جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد والناس كلهم عبيد له، أى عبيد.

كانت ركائز دعوته تعتمد على إصلاح الفهم الخاطئ للدين ومسائله وإصلاح اللغة، والإصلاح السياسى. وكان منهجه يختلف عن منهج أستاذه الأفغانى فى تنفيذ هذه الإصلاحات، حيث كان الأفغانى يفضل أسلوب الثورة كمنهج للتغير، خاصة أنه كان يعانى فى بلاده من ظلم الإنجليز واستعمارهم للهند، فكانت الثورة المسلحة وسيلته المفضلة لتنفيذ منهجه فى الإصلاح. أما محمد عبده فكان يفضل أسلوب التربية والتعليم والتوسع فيها، ليتعرف الشعب على حقوقه لدى الحكومة، ويشق طريقه بالعلم نحو النهضة، لذلك كان منهجه تربويًا دينيًا.

لقد رأى أن أى محاولة للإصلاح فى مصر بالذات ما لم تبدأ بالدين فهى محكوم عليها بالفشل، ذلك أن نفسية المصرى ومزاجه يرتبطان بالدين، ويتأثران به سلبًا وإيجابًا، وتلك ظاهرة عامة فى مصر شملت المسلم والمسيحى على امتداد التاريخ إلى اليوم، ولقد تمسك محمد عبده بهذا المنهج فى الإصلاح وملك عليه حياته العلمية كلها. لذلك نراه يجلس فى المساجد ليفسر القرآن بمنهج جديد، ويضع شرحًا لنهج البلاغة، وللعقائد العضدية، ويضع رسالته فى التوحيد، كل هذه نماذج وضعها ليسير عليها العلماء من بعده، لكى يتركوا التقليد ويباشروا الاجتهاد والتجديد، إن التمسك بالقرآن وإحياء تعاليمه وإقامة أحكامه كان سر تقدم المسلمين، ولا حيلة فى إصلاح وضعنا الراهن إلا بالعودة إليه، لابد أن تفرع صيحته أعماق القلوب لكى تتحرك، ولابد أن تزلزل هزته رواسى الطبع لكى تتغير، ولابد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد إليه لغة العرب وطرائق تعبيرهم ليستجاب له كما استجاب له رعاة الإبل، والقرآن قريب لطالبه، مت كان عارفًا بلغة العرب وقواعدهم أيام نزول الوحى.

بمثل هذه البساطة والبعد عن التكلف كان الإمام محمد عبده يضع منهجًا جديداً فى التفسير والتجديد. ولقد اهتم محمد عبده بتجديد الفكر الإسلامى فى ضوء الرجوع إلى المصادر الأولى والينابيع الصافية خالية من

خلافات المتكلمين والفقهاء، ليفسح بذلك الطريق أمام عقول المعاصرين ليجتهدوا فى تخريج مشكلات عصرهم على ضوء الفهم المناسب للقواعد الشرعية، كما فعل أسلافهم من قبل، فالسف اجتهدوا واختلفوا فى اجتهاداتهم، وخرجوا مشكلات عصرهم بحلول شرعية مناسبة لهم، فلماذا لا يجتهد أبناء العصر ويخرجوا مشكلاتهم بحلول شرعية مناسبة لعصرنا، بدلاً من الوقوف عند رأى فلان أجاز، وفلان منع. إن الرجوع إلى الكتاب والسنة فيها الغناء عن كل هذه الآراء.

ويرى الإمام محمد عبد أن القصور والتقصير فى التعليم الدينى كان سببًا أساسيًا فى تردى الوضع الراهن الذى يعيشه المسلمون، وذلك إما بإهمال التعليم الدينى كلية، كما فى بعض البلاد، أو بالسلوك إليه من غير طريقه القويم، كما فى بعض البلدان الأخرى، أما البلاد التى أهمل فيها التعليم الدينى كلية فلم يبق فيها من الإسلام إلا اسمه ورسمه دون روحه وجوهره، كما أن فهم المسلمين قضية القضاء والقدر فهمًا خاطئًا بعث فيهم روح التواكل والسلبية، وربطوا بين الإيمان بالقضاء والقدر، وكون الإنسان مجبرًا فى أفعاله، مما أوقع المسلمون فى محاذير كثيرة، عاقتهم عن التقدم والعمل ومواكبة العصر، والركون إلى الراحة والدعة، لقد حاول محمد عبده تصحيح مفهوم القضاء والقدر. حتى عمل جاهداً على فك الارتباط بين الإيمان بالقدر والقول بالجبر، ينطلق المسلم من قيود القول بالجبر متمتعًا بحريته التى منحها الله له فى حدود أوامر الشرع ونواهيه.

كما سلك محمد عبده مسلك الأئمة الكبار الذين سبقوه فى القول بأن النص الدينى الصحيح لا يتعارض أبدا مع العقل الصريح، كما فعل ذلك ابن رشد وابن تيمية والأفغانى، ثم جاء محمد عبده ليجدد المسيرة على نفس الدرب، فنصوص الكتاب والسنة تأمر بضرورة النظر العقلى فى هذا الكون من سمائه إلى أرضه؛ لأنه آية على خالقه، فلابد من النفاذ إلى دقائق هذا الكون لاكتشاف قوانينه والوقوف على العلاقات المتبادلة بين الأسباب

والمسببات فى ظواهره، تحصيلاً لليقين ومحاربة للتقليد؛ لأن التقليد مضرة يعذر فيها الحيوان، ولا تليق أبداً بحال الإنسان.

إن النظر العقلى فى الإسلام فريضة دينية فلماذا جمد المسلمون عند حدود قال فلان بالحظر، وقال فلان بالإباحة، لقد قصر المسلمون فى حق أنفسهم من ناحيتين:

الأولى - إهمالهم النظر فى الكون، وما يتعلق به من علوم.

الثانية - جهلهم أن ذلك تعطيل لوظيفة الكون نفسها عن أن تؤدى دورها فى حياة الإنسان، ذلك أن الكون له وظيفتان، الأولى أنه آية دالة على خالقه، ولهذا جاء الأمر الإلهى بالنظر فيه، والاعتبار بسننه وقوانينه، وبقدر ما نكتشف من القوانين ودقائق الصنعة تزداد معرفة بالصنايع وخشية له.

وهذا هو دور العلوم الكونية التى أهملها المسلمون فى هذا العصر مع إنها عصب النهضة وعنوانها. ومن هنا تأخرنا وتقدم غيرنا، والآيات القرآنية التى تحث على النظر والاعتبار فى الكون أكثر من الآيات التى تأمر بالعبادات والشعائر، لكن المسلمين أهملوا كلية جانب النظر الكونى واكتفوا بالأوامر والشعائر.

أما الوظيفة الثانية - فهى تسخيره لصالح الإنسان، وقضية التسخير لا يملك الإنسان ناصيتها، إلا بعد التعرف على هذا الكون وخصائص مفرداته، والعلاقات المتبادلة بين الظواهر وأسبابها.

ولا يستطيع الإنسان أن يملك زمام هاتين الوظيفتين للكون، إلا بسلاح العلم، وإلى العلم فقط يرجع القول الفصل فى ذلك. وهو مطلب شرعى وأمر إلهى. ولعل هذا يعطينا مفتاح السر فى أن أول آية نزلت من القرآن أمرت بقراءة الكون. وأن تكون القراءة باسم الخالق، ليكون الرباط محكمًا ووثيقًا بين الكون المخلوق والرب الخالق، باعتبار أن هذا الكون آية دالة على

خالقه. فهذا هو شأن العلم ودوره فى رحاب الإسلام.

إن هذه المهمة أخذت من الإمام محمد عبده وقتًا وجهداً لكى يظهر أن الإسلام لا يحارب العلم، ولا يعارض العقلانية؛ لأن العقل عون على فهم الدين، والدين سراج يضىء للعقل ما ندعنه. و.... فالدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد، لا دين تفريق فى القواعد. العقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه... وما وراء ذلك نزعات شيطانية أو شهوات سلاطين ... «فالوحى بالرسالات نور من نور الله لهداية البشر، والعقل فى جوهره نور من نور الله مع البشر. ومحال أن يصادم النور نوراً، وإنما هو نور على نور، فكلاهما يهدى الإنسان إلى الطريق المستقيم فى الحياة وإلى الفوز فى الآخرة.

وإن بدا أن هناك خلافًا بينهما فى مجالات التطبيق أو فى مفردات الحياة اليومية، فينبغى أن نبحث عن خطأ وقع من المسلم فى فهم النص أو فى دعوى العقل؛ لأن طبيعة الوحى تطابق وظيفة العقل؛ لان غايتهما واحدة، ومصدرهما واحد، وهو الكامل كمالاً مطلقًا، ومحال أن يكون مصدرهما الكمال المطلق، ويقع بينهما تعارض، فعلينا إذن أن نبحث عن أسباب التعارض فى عقلية الباحث، وليس فى جوهر العقل بما هو عقل أو يقينية النص الصحيح.

ومحاولة بعض المشتغلين بالعلم تحريف الكتاب المنزل ليوافق مذهبًا معينًا أو رأى من يقلده الباحث، فإن هذا من شأنه أن يخرج الباحث عن حد الاستقامة فى طلب الحق لذات الحق. وهذا ما أشار إليه كل من ابن رشد فى رسالته «فصل المقال» وابن تيمية فى «درء تعارض العقل والنقل» وطبقه الأفغانى فى رده على الدهريين، فالسلسلة متصلة، والطريق موصول، بين كل حركات الأحياء التى كان هدفها العودة بالمسلمين إلى أصولهم الأولى، والتخلى عن منطق المذهبية وصراع الخلافات والآراء التى تنتصر للهوى وليس للحق.

ويرى محمد عبده أن التعصب للحق ليس إلا التمسك به والمطالبة به؟ وهل معنى السلبية واللامبالاة إلا عدم التمسك بالحق وعدم المطالبة به؟ إن الفارق الأساسى بين الإنسان الملتزم بالقيم والمعتصم بالمبادئ، والإنسان المتحلل من كل قيمة وعقيدة هو الالتزام والتمسك بالحق والمطالبة به، وإذا كان التمسك بالحق والمطالبة به يسميه الغرب تعصباً لكى ينفر منه، فلا ينبغى أن نترك المطالبة بحقوقنا، سواء كانت شرعية أو وطنية إرضاء لأهواء الغرب منا ومطامعه فينا، أو إرضاء لمن زرعهم بين صفوفنا يرددون شعاراته دون إدراك لمقاصده منها.

إن الغرب كما يقول محمد عبده ـ أشد أمم أهل الأرض تعصباً لدينه وتعصباً لجنسه، وتعصباً لقوميته. فما بالهم يحرمون علينا ما يحللونه لأنفسهم.

وما بالهم يجعلون التعصب لهم من شيم الوطنية والتحضر والمدنية، ويجعلون تمسك صاحب كل دين بدينه أو وطنه وحقوقه تعصباً يطالبون بمقاومته وإبادته؟ هل هذا هو منطق العدل الذى يدندنون حوله، هل هذا هو حق الشعوب فى ممارسة عقائدها والتمتع بحريتها.

ثم يتساءل الإمام: هل التمسك بالإسلام والالتزام به هو الذى يصد العلماء ويمانعهم من الولوج إلى عصر المدنية والحضارة، كما يدعى هؤلاء؟... لقد زعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به من نصرتهم وتضافرهم لدفع ما يلم بهم ويلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذى يصدهم عن السير إلى كمال المدنية، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة، ويرمى بهم فى ظلمات الجهل، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم فى دينهم، ومن رأى أولئك المثقفين أن لا سبيل إلى درء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية، ومحو أثرها وتخليص العقول من سلطان العقائد، وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الإسلامى ويخوضون فى نسبة مذام التعصب إليهم، وكذب الخارصون، أن

الدين أول معلم ومرشد وقائد للأنفس إلى اكتساب العلوم والتوسع فى المعارف، وأرحم مؤدب وأبصر مروض لطبع الأرواح على الآداب الحسنة والأخلاق الكريمة، ويقيمها على الاعتدال فى كل شىء، وفى كل الأحوال، فى الرضا والغضب، فى البغض والسخط، مع من نحب ومن نكره، مع أبناء ملتنا، ومن لا يدن بديننا.

إن التعصب الأعمى الذى لا يفرق بين ما هو حق وما هو باطل ليس له مجال فى تاريخ الإسلام، لا على مستوى الفكر والنظر، ولا على مستوى التطبيق والواقع، بل إن تاريخ معاملة المسلمين لغير المسلمين مسجل بأحرف من نور يحق لكل مسلم أن يفخر به، أما الأمم الغربية التى اندفعت على بلاد المسلمين فأحرقت الأخضر واليابس، ليس لها هدف إلا المحو والإبادة والفتك، كما فعل الأسبان بالمسلمين واليهود فى بلاد الأندلس، وكما فعل صاحب السلطان المسيحى، حيث جمع اليهود والمسلمين فى القدس وأحرقهم، وهذه أمور لم يعهدها تاريخ المسلمين فى أى بلد فتحوها، ولنا الدليل الأقوم على ما نقول، فإن أصحاب الملل المخالفة ما زالوا يتمتعون بالحياة الكريمة بين أبناء الملة الإسلامية ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، كان المسلمون إذا فتحوا بلداً يحفظون على أهل الملل الأخرى أديانهم ومعابدهم أما الأمم الأوروبية فقد أرغمت المخالف لهم على تغيير دينه، وأحياناً أجبرته على تغيير اسمه.

إن المشكلة الكبرى أن الغرب قد تأكد لديه أن أقوى رابطة بين المسلمين هى رابطة الدين وصلة العقيدة، وأدركوا أن سر قوتهم تكمن فى العصبية الدينية، وللغرب مطامع فى بلاد المسلمين، وله ثأر فى دماء المسلمين، فتوجهت عناية الغرب إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين أبناء الملة الإسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم عراها لينقضوا بذلك بناء الملة الإسلامية ويمزقوها كل ممزق، فإنهم علموا ـ كما علمنا وعلم جميع العقلاء ـ أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا الإسلام، رابطتهم فى دينهم واعتقادهم الذى هو رمز وحدتهم وروح قوتهم، وصمم الغرب

على تمزيق هذه الوحدة وقطع هذه الصلات، وكان أحد مداخله وأهم وسائله فى ذلك هو التنفير من العصبية الدينية، ويتبعهم فى ذلك بعض السذج من المسلمين، جهلاً وتقليداً فنقضوا هذه الرابطة الدينية ولم يستبدلوا بها رابطة أخرى؛ لأن الإسلام لا يعرف العصبية القبلية ولا العصبية الجنسية؛ لأنها من دعوى الجاهلية التى حاربها الإسلام وقضى عليها، فأصبح المسلمون بذلك كمن هدم بيتاً بدعوى استبداله بآخر، ولما لم يجد هذا الآخر بقى فى العراء فلم يعد بين المسلمين رابطة الدين قوية، كما كانت من قبل، بينما تناجى غيرهم بأوهى الروابط وشد من أزرها، فبات قوياً وأصبحنا ضعفاء، هذا أسلوب من الدهاء أجادته أوروبا فى تعاملها مع العالم الإسلامى، ولم تعدم صيدها فى البلاد الإسلامية، فاستعملت الكثير منهم فى بلوغ مآربها وتحقيق مقاصدها.

إن الإمام محمد عبده يناشد المسلمين جميعاً ألا يغتروا بهذه الأكاذيب، ويقول: «أيتها الأمة المرحومة، هذه حياتكم فاحفظوها. ودمائكم فلا تريقوها.. هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم وفيها عزتكم ومنعتكم فلا توهنوها، ولكن عليكم أن تخضعوا لسطوة العدل، فالعدل أساس الكون، وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم، ولا يجعلونه منهجاً لعلاقتهم مع أنفسهم ومع الآخرين»(١).

هذه لمحة موجزة وسريعة عن فلسفة المشروع التغريبى للتنوير وأبعاده السياسية والاجتماعية، أردنا بها ضبط مفهوم المصطلح «التنوير» ومضمونه التغريبى وموقف رواد الإصلاح الدينى من هذا المشروع ورفضهم له وتحذيرهم منه. وذلك حتى يكون الشباب على بينة من الأمر، وحتى لا تختلط الأوراق فى يد القارئ. وإن كان ذلك شيئاً مقصوداً من أصحاب المشروع العلمانى.

هذا: وما أريد إلا الإصلاح. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

---

(١) راجع الكتاب التذكاري عن محمد عبده ـ المجلس الأعلى للثقافة ص ٤٠٠ ـ ٤٠٣.